ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ
وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم
بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ (القرآن الحكيم)

الدّاعي

مجلة عربية إسلامية شهرية
تصدر عن الجامعة الإسلامية : دارالعلوم
ديوبند ، يوبي ، الهند

ISSN 2347-8950

العـــــدد : ٣ ، السنـــــة : ٤٩

ربيع الأوّل ١٤٤٦هـ ، سبتمبر ٢٠٢٤م

تحت إشراف

فضيلة الشيخ أبوالقاسم النعماني
رئيس الجامعة

رئيس التحرير

محمد عارف جميل القاسمي المباركفوري
الأستاذ بالجامعة

الاشتراكات

- ثمن النسخة: ٣٠ روبية هندية

قيمة الاشتراك السنوي

- في الهند : ٣٠٠ روبية هندية
- وفي خارج الهند للأفراد : ٦٠ دولارًا
- وللمؤسسات الحكومية : ٨٠ دولارًا

عنوان المجلة على الانترنت
Web : https://darululoom-deoband.com/arabicmagazine

طالعها الآن

البريد الالكتروني
E-mail : info@darululoom-deoband.com

المراسلات

رئيس التحرير مجلة الداعي
دارالعلوم ، ديوبند ، يوبي (الهند)
الرمز البريدي ٢٤٧٥٥٤

Chief Editor
AL – DAIE
Arabic Islamic Monthly
Darul – Uloom,
Deoband – 247554
(U.P.) INDIA

الهاتف والفاكس
Ph. : (00-91-1336) 222429
Fax : (00-91-1336) 222768

المواد التي تنشرها المجلة تعبر عن وجهة نظر كاتبيها و لا تعبّر – بالضرورة – عن رأي المجلة

المحتويات

كلمة المحرر

♦ ما أحوجنا إلى التأسي بالقدوة الأعظم	التحرير	٣

كلمة العدد

♦ الصدق ركيزة العلاقات الاجتماعية النموذجية	محمد عارف جميل القاسمي المباركفوري	٤

الفكر الإسلامي

♦ من ظلال التفسير	العلامة الشيخ شبير أحمد العثماني الديوبندي رحمه الله	٩
♦ الزكاة كمية وقيمة	الأستاذ أشرف شعبان أبو أحمد	١٤

دراسات إسلامية

♦ البلاغة النبوية	الدكتور صبحي الصالح	١٩
♦ من تاريخ الجامعة الإسلامية: دارالعلوم/ديوبند	الأستاذ سيد محبوب الرضوي الديوبندي رحمه الله	٢٣
♦ الإمام أحمد بن حنبل يصارع المأمون والمعتصم في دعوتهما الأمة للقول بخلق القرآن	الدكتور عبد الرحمن عميرة	٣٠
♦ صور من الزهد	الدكتور محمود شيت خطاب	٣٢
♦ هذا الدين	الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي	٣٥
♦ بدء الوحي	الدكتور علي عبد المنعم عبد الحميد	٤١
♦ الإداري المسلم في هدي سلوك الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وإدارته لشؤون الرعية	الدكتور أحمد شوقي الفنجري	٤٦

استراحة القارئ

♦ شذرات	الأستاذ محمد فائز جميل القاسمي	٥٢

إشراقة

♦ أريد أن يدخل كل الناس الجنة إلا ...	أبو عائض القاسمي المباركفوري	٥٦

كلمة المحرر

ما أحوجنا إلى التأسي بالقدوة الأعظم

في الوقت الذي يمر فيه الأمة الإسلامية بأصعب المراحل، وأحرج المواقف في تاريخها العظيم المليء بالعزائم والبطولات والأمجاد والمفاخر يدخل عليهم شهر عظيم: شهر ولد فيه نبي هذا العالم الأعظم والأخير قبل نحو أربعة قرون من الزمان. ولقد شهد العالم إشراقَ هذا النور الثاقب المؤذن بانقضاء ليل الشرك والكفر، وطلوع فجر جديد من العلم والهداية والنور في مثل هذا الشهر شهر ربيع الأول ﴿وَأَشۡرَقَتِ ٱلۡأَرۡضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾ [الزمر:٦٩]، في وقت كان يمر فيه البشرية كلها بأحلك الأوضاع وأشد الظروف: فقد بسطَ الظلمُ جناحيه، وأناخ الاستبداد بكلكله، واستولى الخضوع للمادة والأوهام على النفوس، وسادت عبادة العباد، والاستسلام لشياطين الجن والبشر في كل بقاع الأرض ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٞ مِّنَ ٱلۡإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٖ مِّنَ ٱلۡجِنِّ فَزَادُوهُمۡ رَهَقٗا﴾ [الجن:٦].

ولو ذهبنا نصور- بأخصر كلمة وأوجز تعبير- تلك الأوضاع التي خرج فيها محمد إلى النور لساغ لنا أن نقول: إن العالم كان يعيش فوضى عارمة في جميع شؤونه: فوضى في عقائده و أخلاقه ومثله، وفوضى في عاداته وآدابه، فلم يكن له قانون، ولا للأسرة نظام، وكان الناس يتقاتلون في الحروب ويتفانون فيها، وتندلع فيهم نيران الحرب لأمر تافه، وليس لهم عقيدة ثابتة، فعبدوا أحجارًا نحتوها بأيديهم، أو أشجارًا رأوا بأعينهم يصيبها الحريق فتأكلها وتذرعها رمادًا ثم لايرون غضاضةً من أن يتخذوها آلهةً من دون الله تعالى، يقدمون لها القرابين، ويطوفون بها، و يسجدون لها. وهنا يخرج محمد في قرية صغيرة خاملة بين الأخشبين، جاثمة وراء الجبال و الرمال، لم يُلق لها العالم بالًا، ولا أقام لها وزنًا، يخرج محمد في مكة فينادي بـ(لا إله إلا الله)، لا رب سواه، لا قيصر، ولا كسرى، ولا أصنام الحجر والشجر، ولا أصنام اللحم والدم، كلها خابت وخسرت، ولا فضل لعربي على أعجمي، ولا لأبيض على أسود، ولاتفاضل إلا بالتقوى، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ﴾ [الحجرات:١٣]... وأما الأخلاق فحدث ولا حرج عن سوئها وشرها وفتنتها: جبر و طغيان، وجور وظلم، وذل وضعة وخنوع، وحقد وازدراء: شعوب يستخفها الحكام والملوك، وجهال يستبد بهم أشباه العلماء، ويجتالهم الشيطان.

فماذا فعل محمد النبي الأمي؟ لقد استطاع محمد-صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- في مرحلة زمنية قياسية أن يغير عقائد القوم: من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد، واستطاع أن يبدل عاداتهم: من أمة جاهلة فوضى لا سراة لها، ولا نظام ولا قانون إلى أمة قانون فخضع لها الجبابرة والقوتان العظميان في تلك المرحلة: قيصر وكسرى. فهذا ما صنعه محمد ﷺ.

وإنا – إذا أردنا حقًّا لأنفسنا فلاحًا وصلاحًا، وقيامًا وتأثيرًا وخروجًا من هذا المأزق الذي ضيق علينا الخناق، وأصبح المسلم طريدًا ذميمًا يغمز فيه كل عين، ويستطيل إليه كل لسان، و تمتد إليه كل يد خبيثة ماكرة – يجب أن نتأسى بسنة سيد البشر، وأن نبدأ بإصلاح عقائدنا و تهذيبها، ونربي جيلنا الجديد تربيةً دينيةً، لا تربيةً ماديةً، ويجب أن ندخل من باب الدين، لا من باب الفلسفة الشرقية أو الغربية. ففيه صلاح حالنا وعاقبتنا، وصلاح ديننا ودنيانا، وبه يعود لنا المنزلة التي كانت لنا في العالم، ويرجع إلينا ما فقدناه من النصر والعلاء والعز، بعد أن ضربنا الدهر بنكباته، وقذفنا بضرباته، وأصبح الإسلام في حياة كثير منا خبرًا من أخبار «كان»، وأثرًا من الآثار، وأصابنا مرض استعصى على العلاج، وضرب الأطباء أخماسًا في أسداس فيه، وتبرم به عواده. [التحرير]

(تحريرًا في الساعة الخامسة والنصف من مساء يوم الجمعة: ٥/المحرم الحرام ١٤٤٦=١٢/يوليو٢٠٢٤م)

الصدق ركيزة العلاقات الاجتماعية النموذجية

أولى الإسلام المجتمع أهميةً بارزةً غير عادية، فالمرء في الغالب ابن مجتمعه، يستقي منه أخلاقه ومثله، وعاداته وتقاليده، وخيره وشره. وفي ظل الثقافة الغربية وانتشارها في العالم كالنار في الهشيم تسرب إلى المجتمعات كثير من التفكك والاضطراب والخلاف والشقاق مما فتَّ في تماسكه، وحال دون أدائه الدور المرجو والمطلوب في التربية على الأنماط السلوكية الرشيدة الصالحة.

ومن أهم الأخلاقيات اللازمة في العلاقات الاجتماعية من المنظور الإسلامي الصدق. و النصوص الشرعية -من قرآن وحديث- تركز على هذا الجانب أيما تركيز، وتعطيه ما يستحقه من العناية.

فالصدق قيمة أخلاقية وحجر الزاوية في العلاقات الاجتماعية، وهو خلق من أخلاق المتقين، وأرقى الفضائل الإنسانية، وأساس لنماء المجتمع وارتقائه وسموه، فيقول القرآن الكريم تأكيدًا على أهميته وحاجة المجتمع إليه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾[التوبة:١١٩].

يقول الإمام الرازي في تفسير الآية:

«الآية دالة على فضل الصدق وكمال درجته، والذي يؤيده من الوجوه الدالة على أن الأمر كذلك وجوه... فروي عن ابن مسعود رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أنه قال: «عليكم بالصدق؛ فإنه يقرب إلى البر، والبر يقرب إلى الجنة، وإن العبد ليصدق فيكتب عند الله صديقًا، وإياكم والكذب؛ فإن الكذب يقرب إلى الفجور، والفجور يقرب إلى النار، وإن الرجل ليكذب حتى يكتب عند الله كذابًا، ألا ترى أنه يقال: صدقت، وبررت، وكذبت، وفجرت. وقيل في قوله تعالى حكايةً عن إبليس: (فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ، إِلَّا عِبادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ)[ص:٨٤]: إن إبليس إنما ذكر هذا الاستثناء؛ لأنه لو لم يذكره لصار كاذبًا في ادعاء إغواء الكل، فكأنه استنكف عن الكذب، فذكر هذا الاستثناء، وإذا كان الكذب شيئًا يستنكف منه إبليس، فالمسلم أولى أن يستنكف منه. ومن فضائل الصدق أن الإيمان منه لا من سائر الطاعات، ومن معايب الكذب أن الكفر منه لا من سائر الذنوب».

ويقول الشيخ محمد إدريس الكاندهلوي رَحِمَهُٱللَّهُ (١٣١٧-١٣٩٤هـ/١٩٠٠-١٩٧٤م) في معارف القرآن (٣/٥٣٣) في تفسير الآية: «دلت الآية الكريمة على ضرورة التقوى بعد الإيمان، ثم يجب مصاحبة الصالحين ومجالستهم؛ لأن الله تعالى أمر بـ(وكونوا مع الصادقين) بعد قوله: (اتقوا الله)، والأمر

للوجوب واللزوم. ولايتأتى كمال من غير مصاحبة الكامل، ولايغني فيه مجرد قراءة الكتب، ما لم يتلق العلم على عالم من العلماء. وهل حقيقة الصحابية إلا الشرف بصحبة النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ؟ ومن المسلَّم عند جميع العقلاء أن المصاحبة والمرافقة لها تأثير ومفعول كبيران، فالطبيعة سراقة، والرجل تسرق طبيعته من صاحبه الأخلاق والعادات، ومن هنا حذر الله تعالى من موالاة الظلمة والفسقة، ومن مجالستهم، فقال تعالى: ﴿فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[الأنعام:٦٨]، وذلك مخافة أن تتعدى إلى الرجل جراثيم الظلم والفسق في صاحبه».

ويقول الشيخ المفتي محمد شفيع رحمه الله (١٣١٤-١٣٩٦هـ/١٨٩٧-١٩٧٦م) في معارف القرآن (٤/٤٨٥): «فيه إشارة إلى أن الطريق إلى التقوى هو مجالسة الصالحين و الصادقين وموافقتهم في العمل. ولعل فيه إشارة أيضًا إلى أن الذين زلوا هذه الزلة، كان فيها مدخل لمجالسة المنافقين ومصاحبتهم، فيجب الحذر من مجالسة من يعصي الله تعالى، كما يجب مصاحبةُ الصادقين. وأطلق القرآن الكريم هنا كلمة (صادقين) بدلًا من (العلماء والصالحين) تنبيهًا على أنه ليس عالمًا وصالحًا إلا من وافق ظاهره سريرته، وصدق في نيته وإرادته، وقوله وعمله».

وكان عبد الله بن مسعود رضي الله عنه يرى أنه نهي عن الكذب فقال: إن الكذب لا يصلح منه جدّ ولا هزل، ولا أن يعد أحدكم صبيته شيئًا ثم لا ينجز شيئًا اقرؤوا إن شئتم الآية ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ هل ترون في الكذب رخصة؟»(تفسير الثعلبي ٥/١٠٩؛ تفسير الطبري ١٤/٥٦٠).

وروى الطبراني عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنه قال: «أيها الناس، عليكم بالصدق؛ فإنه يقرب إلى البر، وإن البر يقرب إلى الجنة، وإياكم والكذب؛ فإنه يقرب إلى الفجور، وإن الفجور يقرب إلى النار، إنه يقال للصادق: صدق وبر، وللكاذب: كذب وفجر، ألا وإن للملك لمة، وللشيطان لمة، فلمة الملك إيعاد للخير، ولمة الشيطان إيعاد بالشر، فمن وجد لمة الملك فليحمد الله، و من وجد لمة الشيطان فليتعوذ من ذلك، فإن الله عز وجل يقول: ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم﴾ [البقرة:٢٦٨] إلى آخر الآية (المعجم الكبير، برقم:٨٥٣٢).

ومن أنواع الصدق الصدقُ في المعاملات التجارية، فالصدق فيها سبب البركة والخير، و الكذب يمحقها. فروى البخاري في صحيحه (برقم:٩٨٤) عن حكيم بن حزام رضي الله عنه قال: قال رسول الله -صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ-: «البيعان بالخيار ما لم يتفرقا- أو قال: حتى يتفرقا-، فإن صدقا وبينا بورك لهما في بيعهما، وإن كتما وكذبا محقت». وفي رواية: «فعسى أن يربحا ربحا ويمحقا بركة بيعهما».

ويقول الشيخ عبد الرحمن آل سعدي في شرح هذا الحديث: «هذا الحديث أصل في بيان المعاملات النافعة، والمعاملات الضارة، وأن الفاصل بين

النوعين: الصدق والبيان. فمن صدق في معاملته، وبين جميع ما تتوقف عليه المعاملة من الأوصاف المقصودة، ومن العيوب و النقص. فهذه معاملة نافعة في العاجل بامتثال أمر الله و رسوله، والسلامة من الإثم، وبنزول البركة في معاملته، وفي الآجلة بحصول الثواب، والسلامة من العقاب. ومن كذب وكتم العيوب، وما في العقود عليه من الصفات فهو مع إثمه معاملته ممحوقة البركة، متى نزعت البركة من المعاملة خسر صاحبها دنياه وأُخراه. ويستدل بهذا الأصل على تحريم التدليس، وإخفاء العيوب، وتحريم الغش، والبخس في الموازين والمكاييل والذرع وغيرها؛ فإنها من الكذب والكتمان. وكذلك تحريم النجش، والخداع في المعاملات، وتلقي الجلب ليبيعهم، أو يشتري منهم. ويدخل فيه: الكذب في مقدار الثمن والمثمن، وفي وصف المعقود عليه، وغير ذلك. وضابط ذلك: أن كل شيء تكره أن يعاملك فيه أخوك المسلم أو غيره ولا يخبرك به، فإنه من باب الكذب والإخفاء و الغش. ويدخل في هذا: البيع بأنواعه، والإجارات، والمشاركات وجميع المعاوضات، وآجالها و وثائقها، فكلها يتعين على العبد فيها، الصدق والبيان، ولا يحل له الكذب والكتمان» (بهجة قلوب الأبرار ١/ ٩٩).

ومن هنا أمر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ التجار بالتصدق؛ وعلل ذلك بحضور الكذب في المعاملات، فروى أبوداود في سننه (برقم:٣٣٢٦): عن قيس بن أبي غرزة، قال: كنا في عهد رسول الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- نُسَمَّى السماسرةَ، فمر بنا رسول الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فسمانا باسم هو أحسن منه، فقال: «يا معشر التجار، إن البيع يحضره اللغو والحلف، فشوبوه بالصدقة» وفي رواية: «يحضره الحلف والكذب».

وشدّد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ النكير على من ينفق سلعته بالحلف الكاذب؛ فقد روى الإمام مسلم في صحيحه (برقم:١٠٦) عن أبي ذر، عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة، ولاينظر إليهم، ولا يزكيهم، ولهم عذاب أليم». قال: فقرأها رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثلاث مرار، قال أبو ذر: خابوا وخسروا، من هم يا رسول الله؟ قال: «المسبل، والمنان، والمنفق سلعته بالحلف الكاذب».

وجاء في «الإفصاح عن معاني الصحاح لابن هبيرة» (٢/ ١٧٦) في شرح هذا الحديث: «وأما المنفق سلعته فإن غر أخاه وغشه في معاملته، ولم يرض بذلك حتى زاده غرورًا بأن حلف له بالله عز وجل كذبًا، فباع أمانته، وخفر ذمة نفسه، وأسخط ربه فيما فعل من ذلك، ولقد ختم ذلك بيمين فاجرة في شيء زهيد؛ لأن الدنيا بأسرها في هذا المقام حقيرة فكيف لشيء منها».

و روى النسائي في سننه [برقم:٤٤٦٢] عن أبي هريرة، عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «ثلاثة لا يكلمهم الله عز وجل، ولا ينظر إليهم يوم القيامة، ولا يزكيهم، ولهم عذاب أليم: رجل على فضل ماء بالطريق يمنع ابن السبيل منه، ورجل بايع إمامًا لدنيا إن أعطاه ما يريد وفى له، وإن لم يعطه لم

يف له، و رجل ساوم رجلًا على سلعة بعد العصر، فحلف له بالله لقد أعطي بها كذا وكذا فصدقه الآخر».

وأخرج الإمام البخاري رحمه الله في صحيحه (برقم:٧٤٤٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة، ولاينظر إليهم: رجل حلف على سلعة لقد أعطي بها أكثر مما أعطى وهو كاذب، ورجل حلف على يمين كاذبة بعد العصر ليقتطع بها مال امرئ مسلم، ورجل منع فضل ماء. فيقول الله يوم القيامة: اليوم أمنعك فضلي كما منعت فضل ما لم تعمل يداك».

واستثنى النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ التاجر الصدوق من التجار الذين يبعثون يوم القيامة فساقًا، فقد روى الترمذي في سننه (برقم:١٢١٠) عن إسماعيل بن عبيد بن رفاعة، عن أبيه، عن جده أنه خرج مع النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ إلى المصلى، فرأى الناس يتبايعون، فقال: يا معشر التجار، فاستجابوا لرسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، ورفعوا أعناقهم وأبصارهم إليه، فقال: «إن التجار يبعثون يوم القيامة فجارًا، إلا من اتقى الله، وبر، وصدق».

قال العلامة السندي في حاشيته على سنن ابن ماجه (٢/ ٥) تعليقًا على هذا الحديث: «قوله: (فجارًا)؛ فإن من عادتهم التدليس في المعاملات والأيمان الكاذبة ونحوها، واستثنى من اتقى المحارم، ويوفي يمينه، وصدق في حديثه».

وذكر العلامة ابن القيم رحمه الله كلامًا مفيدًا في تفسير كيف أن الكذب هو سبب المعاصي والآثام. قال رحمه الله في «البدائع» (ص١٣٥): «إياك والكذب؛ فإنه يفسد عليك تصور المعلومات على ما هي عليه، ويفسد عليك تصورها وتعليمها للناس؛ فإن الكاذب يصور المعدوم موجودًا والموجود معدومًا، والحق باطلًا، والباطل حقًا، والخير شرًا، والشر خيرًا؛ فيفسد عليه تصوره وعلمه عقوبةً له ثم يصور ذلك في نفس المخاطب المغتر به الراكن إليه، فيفسد عليه تصوره وعلمه ونفس الكاذب معرضة عن الحقيقة الموجودة، نزاعة إلى العدم، مؤثرة للباطل، وإذا فسدت عليه قوة تصوره وعلمه التي هي مبدأ كل فعل إرادي فسدت عليه تلك الأفعال وسرى حكم الكذب إليها فصار صدورها عنه كصدور الكذب عن اللسان، فلا ينتفع بلسانه ولا بأعماله؛ ولهذا كان الكذب أساس الفجور ،كما قال النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «إن الكذب يهدي إلى الفجور، وإن الفجور يهدي إلى النار»، وأول ما يسري الكذب من النفس إلى اللسان فيفسده ثم يسري إلى الجوارح، فيفسد عليها أعمالها كما أفسد على اللسان أقواله، فيعم الكذب أقواله و أعماله وأحواله، فيستحكم عليه الفساد، ويترامى داؤه إلى الهلكة إن لم يتداركه الله بدواء الصدق يقلع تلك المادة من أصلها؛ ولهذا كان أصل أعمال القلوب كلها الصدق، وأضدادها من الرياء والعجب والكبر والفخر والخيلاء والبطر والأشر والعجز والكسل والجبن والمهانة وغيرها أصلها الكذب؛ فكل عمل صالح ظاهر أو باطن فمنشؤه

الصدق، وكل عمل فاسد ظاهر أو باطن فمنشؤه الكذب والله تعالى يعاقب الكذاب بأن يقعده ويثبطه عن مصالحه ومنافعه، ويثيب الصادق بأن يوفقه للقيام بمصالح دنياه وآخرته، فما استجلبت مصالح الدنيا والآخرة بمثل الصدق، ولا مفاسدهما ومضارهما بمثل الكذب».

ويؤدي الصدق والأمانة في المعاملات إلى صلاح أمر المجتمع، والتعاون السليم بين أعضائه، والأمن من الظلم والعدوان بعضهم لبعض، ويجلب الكذب والغش التباغض والشحناء وأكل أموال الناس بالباطل، فورد النهي عن الغش في الحديث النبوي. فروى ابن ماجه في سننه (برقم:٢٢٢٤) عن أبي هريرة، قال: مر رسول الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- برجل يبيع طعامًا، فأدخل يده فيه، فإذا هو مغشوش، فقال رسول الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: «ليس منا من غش».

ففي الحديث وعيد شديد على الغش، ومن الغش مزج الجيد بالرديء، وخلط اللبن بالماء ونحو ذلك من صور الغش والخداع التي نواجهها كل يوم في حياتنا اليومية.

وروى مسلم في صحيحه (برقم:١٠٢) عن أبي هريرة أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مر على صبرة طعام فأدخل يده فيها، فنالت أصابعه بللًا فقال: «ما هذا يا صاحب الطعام؟» قال: أصابته السماء يا رسول الله، قال: «أفلا جعلته فوق الطعام كي يراه الناس، مَن غش فليس مني».

وقال في دليل الفالحين (٨/٤٢٣) في شرح الحديث: «(فأدخل يده فيها فنالت) أي: أصابت (أصابعه بللًا) مستورًا بالطعام اليابس، (فقال: ما هذا) أي: البلل المنبىء غالبًا عن الغش. (يا صاحب الطعام)، يحتمل أن ترك نداءه باسمه، لعدم العلم به؛ أو أنه للتسجيل عليه، بإضافته إلى ما غش به زيادةً في زجره وتنكيله (قال: أصابته السماء) أي: المطر؛ لأنه ينزل منها، فهو من مجاز التعبير، بالمحل عن الحال فيه، وقوله: (يا رسول الله) أتى به تيمنًا وتلذذًا به. (قال) أسترت ما ابتل غشًّا (أفلا جعلته فوق الطعام حتى يراه الناس) فتسلم من الغش الذي هو أقبح الأوصاف، القاطعة لرحم الإِسلام، الموجبة لكون المسلم للمسلم، كالبنيان يشد بعضه بعضًا، ومن قطع رحم الإِسلام خشي عليه الخروج من عدادهم، كما ينشأ عن ذلك ما هو مقرر في شرعنا (من غشنا فليس منا) المراد بالغش هنا كتم عيب المبيع أو الثمن، والمراد بعيبه هنا: كل وصف يعلم من حال آخذه، أنه لو اطلع عليه لم يأخذه بذلك الثمن، الذي يريد بدله فيه».

فالالتزام بالمبادئ الاجتماعية التي سنَّها الإسلام صمام أمن من كثير من الأمراض و الأدواء الاجتماعية التي تفت في تماسكه وترابطه وتعاضده؛ ويضمن لنا الرقي والازدهار وتسابق الأمم الأخرى في مختلف المجالات الحيوية، وخاصةً نحن أمة أخرجت للناس، تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، فلنقدم للعالم صورةً نموذجيةً مثلى للصدق والأمانة في العلاقات الاجتماعية والمعاملات.

محمد عارف جميل القاسمي المباركفوري

من ظلال التفسير

بقلم: العلامة الشيخ شبير أحمد العثماني رحمه الله
(١٣٠٥-١٣٦٩هـ/١٨٨٧-١٩٤٩م)
تعريب: أبو عائض القاسمي المباركفوري(*)

وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَا فِي كُلِّ قَرۡيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجۡرِمِيهَا لِيَمۡكُرُواْ فِيهَاۖ وَمَا يَمۡكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمۡ وَمَا يَشۡعُرُونَ ﴿١٢٣﴾

أي ليس المكر والاحتيال قاصرًا على سادات مكة هؤلاء اليوم؛ بل كان ذلك من ديدن الكفار من القديم مخافة أن يطيع العامة الرسلَ، فمثلًا رأى فرعون المعجزة فمكر بأن قال: إنما يريد موسى أن يسلبكم حكومتكم بقوة سحره؛ ولكن لا ينطلي مكر وكيد هؤلاء على عباد الله المخلصين، وإنما خرَّب الماكرون عاقبتهم فما ضروا إلا أنفسهم، مما لايشعرون به اليوم.

وَإِذَا جَآءَتۡهُمۡ ءَايَةٞ قَالُواْ لَن نُّؤۡمِنَ حَتَّىٰ نُؤۡتَىٰ مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ رُسُلُ ٱللَّهِۘ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥۗ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعَذَابٞ شَدِيدُۢ بِمَا كَانُواْ يَمۡكُرُونَ ﴿١٢٤﴾

ومن أمثلة مكرهم واحتيالهم المشوب بالكبر أنهم إذا رأوا آيةً على صدق الأنبياء عليهم السلام، قالوا: لانؤمن بما جاؤوا به من الآيات والأدلة، ولن نؤمن حتى ينزل علينا الملائكة، وتتلو علينا رسالة الله تعالى تلاوتهم على الأنبياء والرسل، أو يأتينا ربنا بنفسه (وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَوۡ نَرَىٰ رَبَّنَاۗ لَقَدِ ٱسۡتَكۡبَرُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ وَعَتَوۡ عُتُوّٗا كَبِيرٗا) [الفرقان:٢١]. ولايعلم أحد إلا الله تعالى من يستأهل للرسالة، وحمل هذه الأمانة الإلهية العظيمة، فليس ذلك أمرًا مكسوبًا، يتأتى بالدعاء أو الرياضة أو بالجاه أو المال في الدنيا، كما أنه لايسند إلى كل من هب ودب مثل هذه المسؤولية الجسيمة الخطيرة؛ ولكن ليكن أصحاب الوقاحة والكيد والمكر على حذر من أنهم سيواجهون الرد على طلب هذه المنصب الكريم بالذل والخزي والعذاب الشديد.

فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهۡدِيَهُۥ يَشۡرَحۡ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِۖ وَمَن يُرِدۡ أَن يُضِلَّهُۥ يَجۡعَلۡ صَدۡرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجٗا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِۚ كَذَٰلِكَ يَجۡعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجۡسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿١٢٥﴾

أي: يحاول الصعود إلى السماء، ولن يستطيعه، فيضيق ذرعًا بشدة.

وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسۡتَقِيمٗاۗ قَدۡ فَصَّلۡنَا

(*) أستاذ الحديث والأدب العربي بالجامعة.

ٱلْأَيَـٰتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾

والـذين لايريـدون الإيـمان يُـصَب علـيهم العــذابُ والهلاكُ فتـضيق صــدورهم مـع مـرور الأيام حتى لايبقى فيها منفذ لدخول الحق إليها، ثم يـصبح ضـيق الـصدر هـذا عـذابًا يتمثـل لهـم يـوم القيامة.

حمل المترجم رحمه الله الرجس على العذاب، وهذا البيان يوافقه، وعليه حمله عبد الرحمن بن زيد ابن أسلم على الرجس، وحمله ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ هنا على الشيطان، وربما يرجع ذلك إلى الرجس والقذر، ومن أشد قذرًا من الشيطان؟ ومعنى الآية على هذا التفسير: يـسلط علـيهم الـشيطان لعـدم إيمانهــم وكفـرهم، فلايوفقــون للرجــوع إلى الإيــمان أبـدًا. ويقول الشاه – عبد القادر رحمه الله-: ذكر أولًا أنّ الكفار كانوا يحلفون أنهم يؤمنون إن رأوا الآيات. ويقـول هنـا: كيـف يؤمنـون إذا لم نـوفقهم للإيـمان. وتخلل ذلك سوق حيل تحليل الميتة. وهنا رد على أن مــن كــان عقلــه لايـسمح إلا بالعنــاد والتعنــت والاستبداد بالرأي، ويخلق الحيل إذا رأى الآيات، فهو علامة على ضلاله، ومن رضي عقله بالعدل والإنصاف والطاعة فهو علامة على الهداية والرشد، وهؤلاء يحملون علامات الضلال، فلاتؤثر فيهم آية من الآيات. وأما نسبة إرادة الهدى والضلال إلى الله تعـالى، فقـد سـبق الكـلام عنهـا في غـير موضـع، وسنتعرض له لاحقًا في موضعه أيضًا، وهي قضية طويلة الذيل، عويصة، فوددنا أن نعد حولها مقالًا ضافيًا، ونضمه إلى الفوائد. وبالله التوفيق.

لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَـٰمِ عِندَ رَبِّهِمْ ۖ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٧﴾

أي: من سلك طريق الإسلام والطاعة، وصل إلى منزلـه بـسلام، وكـان الله تعالى وليًا ونـاصرًا لـه. وهـذه حـال مـن كـان الله تعالى وليًا لـه أي: أولياء الرحمن، وفيما يأتي حديث عن أولياء الشيطان.

وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَـٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ ۖ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا ۚ قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٢٨﴾

أي: يا شياطين الجن، لقد استهويتم كثيرًا من أشقياء الإنس وسلكتم بهم طريقكم.

فائدة:

الذي يعبده البشر من الصنم وغيره في الدنيا إنما يعبد في الواقع خبثاء الجن – أي الشياطين–، رجاء أن ينفعوه، فيقدم إليهم النذور، وكان كثير من أهــل الجاهليــة يـستعينون بــالجن عنــد القلــق والاضطراب، كما في السور التي تشير إليه. وساق ابن كثير وغيره الأحاديث في ذلك. وحين يؤخذ شياطين الإنس والجن على حد سواء، وتنكشف السرائر، يعتذر المشركون فيقولون: يا ربنا، ما عبدناهم، وإنما استمتع بعضنا ببعض لمدة قليلة، وكنا نحتال بعض الحيل لتمشية أمور الدنيا قبل أن يأتينا أجلنا، ولم نقصد عبادتهم.

فائدة:

إنما قال: (إِلَّا مَا شَآءَ اللَّهُ)؛ لأن عذاب النار دائم خالد، فهو قادر على إيقافه إذا شاء ذلك؛ ولكن شاء أمرًا وأخبر به على ألسنة الرسل، فلايتأخر.

فائدة:

أي: خبير كل الخبرة بجرائم المجرمين، وذو حكمة بالغة، فيعاقب على كل جريمة عقابًا يناسبه ويوافقها.

وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًۢا بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿١٢٩﴾

كما سمعتم أحوال شياطين الجن وأوليائهم من الإنس، كذلك نقرب الظلمة والطغاة والعصاة بعضهم إلى بعض حسب ظلمهم وسيئاتهم، ويلقى كل واحد منهم في طبقة العصاة التي تناسبه حسب ظلمهم ومعصيتهم.

يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَاۚ قَالُواْ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَاۖ وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَٰفِرِينَ ﴿١٣٠﴾

ذكر آنفًا مكر الجن والإنس وعقوبتهم، كما حكى اعتذارهم في الجملة على ألسنة أولياء الجن. ثم ينبه هنا على أنه ليس شيء من أعذارهم منطقيًّا وصالحًا للقبول، وقد تمت حجة الله تعالى في الدنيا، واضطروا إلى الإقرار به، وهذا الخطاب (يامَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْاِنْسِ) يتوجه يوم القيامة، والمخاطب به الجن والإنس أي مجموعة المكلفين كلهم، ولم يخاطب كل جماعة وحدها، حتى يرد أن الرسل لم يأت إلا من الإنس، ولم يسبق رسول من الجن. فكيف يصح القول: (رُسُلٌ مِّنْكُمْ)؟والأصل أن مجموعة المخاطبين إذا تحقق إتيان الرسل إلى نوع منها، وكان الغرض منه إفادة المخاطبين كلهم من غير تخصيص، لم يمنع ذلك عن مخاطبة المجموع. مثلًا لو قال: يا معشر العرب والعجم، وأهل الشرق والغرب! ألم يخلق الله تعالى فيكم بشرًا كاملًا مثل محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ فلايفهم أحد منه أن محمدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعث في العرب، وأن محمدًا آخر بعث في العجم، و كذلك محمد ثالث بعث في الشرق، ومحمد رابع بعث في الغرب، وأنه لايصح هذا النص إلا بهذه الصورة. وقِس عليه أن قوله: (يَمَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْاِنْسِ اَلَمْ يَاْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنْكُمْ) إنما يدل على أن الرسل بعثوا في مجموعة الجن والإنس. وأما تحقيق أن كل نوع بعث فيه رسول مستقل أو أن رسولًا واحدًا بعث إلى جميع أفراد الجن والإنس، فالآية ساكتة عنه. وتوصل العلماء في ضوء النصوص الأخرى إلى أنه ليست بعثة كل نبي عامةً، وأنه لم يرسل الله تعالى رسولًا مستقلًا في الجن. وجعلهم الله تعالى تبعًا للإنس في معظم شؤون المعاش والمعاد، كما تدل عليه آيات سورة الجن ونصوص الحديث وغيرها. وليس هنا قاعدة كلية تقول: يجب إرسال رسول إلى كل نوع من الخلق يخصهم. وأما إنكار القرآن الكريم -في غير موضع- إرسالَ

الملائكة بشرًا إلى الإنس، فالقصد منه أن عامة البشر بهيئتهم الأصلية لايتحملون رؤية الملائكة، ولايستفيدون منهم لفرط خوفهم وهيبتهم منهم، وأما لو نزلت الملائكة رسلًا في صورة بشر، لاستلزم اللبسَ من غير حاجة. وقِس عليه أن الجن لو استأهلوا للنبوة لما بعثوا في البشر رسلًا، فإن نفس الإيراد واقع فيه أيضًا. وأما بعث الرسول الإنسي إلى الجن فلايشكل؛ لأن الجن لايعجزون عن تحمل رؤية البشر، ولايخافون الإنس خوفًا يحول دون استفادة الجن من البشر. ثم إن الله تعالى يرزق الرسول من قوة القلب ما يحول دون خوفه من الجن، ذلك الخلق الرهيب.

فائدة:

أي: ألهتهم لذات الدنيا وشهواتها، فلم يفكروا أصلًا أنهم ماثلون أمام أحكم الحاكمين هذا، الذي لايغادر صغيرة ولاكبيرة إلا حاسب عليها.

فائدة:

ذكر في هذه السورة آنفًا أن الكفار ينكرون كفرهم أولًا، ثم يجعلهم الله تعالى معترفين به بتدبير منه.

ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ ﴿١٣١﴾ وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٢﴾

أي: ليس من سنة الله تعالى أن يؤاخذ أحدًا على ظلمه وعصيانه في الدنيا أو في الآخرة من غير تنبيهه وإشعاره. ولأجل ذلك أرسل الرسل والنذر، ليبينوا للجن والإنس ما فيه خيرهم وضيرهم، والمبدأ والعاقبة. ثم يعامل الله تعالى كل واحد على حسب درجات عمله.

وَرَبُّكَ ٱلْغَنِىُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنۢ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ ﴿١٣٣﴾ إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَءَاتٍ ۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿١٣٤﴾

لقد أتم الله تعالى حجته بإرسال الرسول. فإن أبيتم إلا الانحراف عن الصراط المستقيم فهو غني عنكم، ولا يبالي بكم، ولو شاء لأذهبكم كلمح بالبصر، واستخلف من بعدكم قومًا آخرين، يطيعون الله تعالى، وليس إذهابكم واستخلاف قوم آخرين مكانكم عزيز على الله تعالى. أرأيتم آباءكم الذين تخلفونهم اليوم، ألم يستخلفكم مكانهم في الدنيا. فأمر الله تعالى ماضٍ ومفعول. فإن أبيتم استخلف من بعدكم قومًا آخرين، ولكن اعلموا أن عذاب الله تعالى آتٍ إن استمر هذا البغي والطغيان، فإن ظننتم أنكم تنجون منه بالهروب أو اللجوء إلى مكان، فليس ذلك إلا سفاهةً وحمقًا، ولايعجز اللهَ تعالى الخلقُ كله - ولو كان بعضهم لبعض ظهيرًا - عن تحقيق مشيئة الله تعالى.

قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١٣٥﴾

أي: أخبرناكم بالخير والشر والنفع والضرر، فإن أبيتم إلا ظلم أنفسكم فأنتم وشأنكم، فاعملوا

عملكم، وأنا أقوم بعملي ووظيفتي، وعما قريب يتجلى من يكون له عاقبة هذه الدنيا. ولاشك أن عاقبة الظالمين وخيمة، ثم ذكر لاحقًا بعض مظالمهم العقدية والعملية السائدة فيهم، وأعظمهما ما ذكره بقوله: (اِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيْمٌ)[لقمان:١٣].

وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا فَقَالُواْ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَاۖ فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْۗ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿١٣٦﴾

يقول الشاه – عبد القادر رحمه الله–: كان الكفار يقدمون جزءًا من زرعهم، وصغار مواشيهم إلى الله تعالى وإلى الأصنام. ثم إذا رأوا شيئًا من الحيوان صرفوه إلى الله تعالى خيرًا صرفوه إلى الأصنام. وما جعلوه للأصنام لم يصرفوه إلى الله تعالى خوفًا من الأصنام. وكذلك إن صار في نصيب الله تعالى ما جعلوه من الحبوب وغيرها للأصنام بالصدفة أفرزوه من نصيبه وردوه إلى الأصنام، وأما لو صار إلى نصيب الأصنام ما جعلوه لله لم يردوه إلى نصيب الله تعالى، بحجة أن الله تعالى غني، فلابأس لو نقص نصيبه، بخلاف الأصنام.

ومن الطريف أنهم لايستحيون حين يقولون ذلك من أن اتخاذ هؤلاء المحتاجين والاستعانة بهم ليس من العقل والفهم شيء. فقوله: (سَآءَ مَا يَحْكُمُوْنَ) رد على تقسيم المشركين هذا، أي ما أظلم أن يجعلوا مما خلق الله تعالى من الحرث والأنعام لغيره سبحانه تعالى، ثم صرفوا الناقص إلى الله تعالى.

وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُواْ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْۖ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١٣٧﴾

فسر مجاهد الشركاء هنا بالشياطين، ومما يدل على فرط جهل المشركين وقساوة قلوبهم أن بعضهم كان يقتل بناته مخافة المصاهرة، ويقتل بعضهم أولادَهم من الصلب خوفًا من أن يطعموا معهم؟و ربما نذر بعضهم أنه يذبح فلانًا من ولده للأصنام إذا بلغ عددهم كذا أو تحققت أمنيته كذا. ثم يعدون هذا الظلم والقساوة عبادةً وزلفى. ولعل الشيطان أملى عليهم هذه الخصلة مضاهاة لسنة خليل الله تعالى. وقد استمرت سنة القتل حتى في اليهود مدة من الزمان على أنه عبادة وزلفى، ورد عليه أنبياء بني إسرائيل ردًا شديدًا. والآية تشنع جميع صور قتل الأولاد السائدة في الجاهلية. وإنما يلقن و يزين الشياطين قتل الأولاد ليهلكوا الناس بذلك في الدنيا والآخرة جميعًا، ويفسدوا عليهم دينهم، بأن يقنعوهم بأن العمل المنافي والمضاد للملة الإبراهيمية والإسماعلية عمل من أعمال الدين وقربة وعبادة والعياذ بالله. فأين هذه الحماقة والجهل من السنة الإبراهيمية؟!

فائدة:

وسبقت آية مماثلة في الجزء الثامن من القرآن الكريم المبدوء بقوله: (لو أننا)، فليرجع إليه وإلى ما سجلناه ضمن الآيات المفيدة هذا المعنى.

الزكاة كمية وقيمة

بقلم: **الأستاذ أشرف شعبان أبو أحمد** (*)

تعتبر الزكاة موردًا من موارد الخزينة العامة للدولة تنفق منها على المصالح العامة للشعب، وفي مقدمة هذه المصالح رفع المستوى المعيشي للمحتاجين الذين لا دخل لهم، أو لهم دخل؛ ولكنه لا يكفي أمثالهم، لكي يعيشوا هم وأسرهم المعيشة الكريمة المناسبة[1]، ولقد حدد الإسلام الأموال التي تجب فيها الزكاة ومقدار الزكاة المستحقة في كل منها، ولكن مع ازدياد أعداد الفقراء ووقوع أعداد كبيرة من الناس تحت خط الفقر مما ترتب عليه عدم خضوع أموالهم للزكاة لعدم بلوغها النصاب «والذي متى تحقق في أموالهم وجبت فيها الزكاة»، ومع قلة أعداد الأغنياء واستحداثهم لوسائل جديدة لتنمية رأس المال وتداوله بينهم، فما موقف الإسلام تجاه ما جد من أوضاع مالية واقتصادية واجتماعية أثرت على دخول الأفراد وأموالهم واستثماراتهم وما يستحق عليها من زكاة، وهل شدة الحاجة لأموال الزكاة وقلة مواردها ممكن أن يدفعنا لرفع نصاب الزكاة ووضع قاعدة النسب المتصاعدة للجباية محل النصاب[2]؟، للإجابة على هذه وتلك من الاستفسارات يجيب فضيلة الدكتور عبد المنعم النمر بقوله: إذا كانت هناك أحوال تقتضي أن تأخذ الدولة أكثر من النسب الواجبة في الزكاة، لمواجهة النفقات اللازمة للجيش أو للمشروعات الضرورية للأمة، أو لزيادة المعونة للمحتاجين مراعاةً لمستوى المعيشة، يمكن الحاكمَ للعادل أن يفرض هذه الزيادة باسم الإسلام كما يحصل في الضرائب التصاعدية، فالشريعة الإسلامية مبناها وأساسها مصالح العباد، وحيثما تكون المصلحة فثم شرع الله، فإذا كانت مصلحة الناس تقضي بإضافة زيادة على النسبة الواجبة في الزكاة، فللحاكم؛ بل عليه أن يفرض هذه الزيادة، وتصبح واجبة على من تفرض عليهم وجوبًا شرعيًا، فليست النسبة التي حددها الإسلام إلا حدًّا أدنى لا يصح أن تنزل عنه بحال من الأحوال، أما الزيادة فالباب مفتوح أمامها، وقد

(*) ٦ شارع محمد مسعود متفرع من شارع أحمد إسماعيل، وابور المياه – باب شرق – الإسكندرية، جمهورية مصر العربية.

حبب الله سبحانه وتعالى إليها ورغب فيها في آيات كثيرة جدًّا من القرآن الكريم، وهي في الواقع أكثر من الآيات التي تتحدث عن الزكاة الواجبة، وكلها تغري بالإنفاق، وتحبب إليه، وتعد أصحابه بالثواب أضعافًا مضاعفةً. ومن الجائز شرعًا أن يجعل الحاكم الشيء المحبب إليه، والشيء المباح شيئًا واجبًا إذا دعت المصلحة إليه، من هذه الآيات قوله تعالى في سورة التغابن آية ١٧: ﴿إِن تُقْرِضُواْ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعِفْهُ لَكُمْ﴾، فسمى الله الإنفاق على المحتاجين قرضًا لله، يرده الله لصاحبه ثوابًا مضاعفًا في الآخرة وبركةً ونموًا في الدنيا، فالله لا يقترض؛ بل هو واهب الغنى، وواهب الحياة نفسها؛ ولكنه لعنايته سبحانه بالإنفاق سمى ما يأخذه المحتاجون قرضًا له اقترضه من عباده. وفي الحديث القدسي: « الفقراء عيالي والأغنياء وكلائي؛ فإن بخل وكلائي على عيالي أذقتهم وبالي ولا أبالي» فسمى الفقراء عيالًا له وهو ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ مبالغةً في العناية بهم وسد حاجاتهم. ويقول الله تعالى في سورة البقرة آية٢٩١: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّا۟ئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾، ويقول عز وجل في سورة البقرة آية ١٧٧: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ ۖ﴾ والإيتاء الأول (وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ) المراد فيه ما فوق النسبة المقدرة في الزكاة بدليل أنه ذكر بعده كلمة الزكاة في قوله: (وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ) بجانب الصلاة، وقد كان أبو ذر رضي الله عنه يستدل بهذه الآية على وجوب إنفاق ما زاد عن الحاجة، وسمى هذا الزائد كنزًا يعاقب كانزوه[٣]، ولبيان أنه لا بدعة ولا خروج عن الدين في مناقشة ما اتصل بنظم الزكاة، نذكر أنه رسول الله ﷺ قد توفي دون أن يبين للصحابة وضع عروض التجارة من الزكاة، وقد مرت على المسلمين خلافة أبي بكر الصديق دون أن يفكر في أمرها وإخضاعها للزكاة الخليفة الأول وبقية الصحابة المعاصرين، ثم حدث أن جاء يومًا للخليفة الثاني عمر بن الخطاب قوم من الشام فقالوا له: إنا قد أصبنا أموالًا وخيلًا، ونحب أن يكون لنا فيها زكاة وطهور. فقال عمر: ما فعله صاحباي قبلي فأفعله «يقصد الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

وأبا بكر»، وطرح الفاروق الأمر على الحاضرين من أقرب صحابة المصطفى عليه الصلاة والسلام وفيهم الإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، فقال علي: هو حسن إن لم تكن جزية راتبة ويؤخذون بها من بعدك. هكذا وبعد انقطاع الوحي وتوقف السنة بوفاة النبي بأكثر من عامين وجد الإمام علي بن أبي طالب والخليفة عمر بن الخطاب أن إخضاع عروض التجارة لركن الزكاة حق مشروع للمجتمع الإسلامي؛ بل وبعد عمر وعلي وموت كل صحابة الرسول ومرور نحو ١٢٣ سنةً هجريةً على وفاة الخليفة الثاني و١٣٦ سنةً على وفاة المصطفى، جاء الإمام أبو حنيفة النعمان ليرفع قيمة الزكاة على الفرس والتي قررها عمر بن الخطاب نحو سنة ١٣ هجريةً «رغم إعفاء الرسول ﷺ الخيل من الزكاة» من عشرة دراهم على الفرس الواحد أي ٧ر٢٩ من الجرام الذهب إلى دينار كامل أي ٢٥ر٤ جرامًا ذهبيًا. هذه الزيادة التي قررها الإمام أبو حنيفة النعمان على زكاة الخيل، ومن قبلها قرار عمر بن الخطاب بناء على رأي علي بن أبي طالب بإخضاع عروض التجارة للزكاة يؤكد حقيقةً هامةً أنه لا بدعة ولا خروج عن الدين في مناقشة ما اتصل بنظم الزكاة. ورحم الله فضيلة الشيخ محمد أبو زهرة عندما نادى بضرورة النظر في قواعد الزكاة على ضوء المتغيرات الاقتصادية والاجتماعية الحديثة وصولًا إلى غاية الله سبحانه من فرضها على أموال الأغنياء وتحقيق كامل لعلة النصوص الإسلامية في شأنها. قال الإمام أبو زهرة في بحث طرحه على المؤتمر الثاني لمجمع البحوث الإسلامية المنعقد بمصر في المحرم ١٣٨٥هـ مايو ١٩٦٥م ص١٨١: إن تعميم الأحكام الخاصة بالزكاة في كل ما يتحقق فيه العلة يؤدي إلى أمر حق ويمنع أمرًا ظالمًا؛ لأنه يؤدي إلى المساواة العادلة بين الناس، والأمر الظالم الباطل الذي يمنع فرض الزكوات على الأموال التي تدر مالًا كثيرًا ولم تكن في عهد الرسول هو أن يفر الناس مما تجب فيه الزكاة إلى مالا تجب، فتكون الكثرة في جانب من أبواب الكسب والقلة في باب آخر، وربما كانت حاجة الأمة إليه أمس وأشد. هذا رأي فضيلة الشيخ أبو زهرة في ضرورة شمول الزكاة لكل الأموال المتجاوزة للنصاب «الحد الأدنى لتكلفة الحياة اليوم»، وينقل الإنسان من حالة الفقر إلى حالة الغنى. ونضيف عليه قياسًا على فتوى الإمام أبي حنيفة برفع زكاة الخيل ما يزيد على نحو أربعة عشر ضعفًا بأن المتغيرات الاقتصادية والاجتماعية اليوم تتطلب أئمةً عظامًا مثل أبي حنيفة

وولاة أمـر صـادقين أمثـال عمـر وعـلي يـدركون بشجاعة اليقين عند عمر وعلي وأبي حنيفة حقائق التطور الجاري اليوم في حركة رأس المال، ويقدمون على النظر في رفع نسب الزكاة على بعض أنواع الأموال، وإخضاع ما استحدث من سبل تنمية رأس المال للزكاة، وليكن أمام أعيننا سيرة المصطفى في تآخيه بين المهاجرين والأنصار ومصادرته لأموال بني النضير وتخصيصها لفقراء المهاجرين من دون أغنياء الأنصار، والحديث النبوي النافي لوهم تبرئة الزكاة لمؤديها من مسؤولياته المالية الأخرى نحو الفقراء فقد روي عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال: «إن في المال حقًا سوى الزكاة»، كما قال: «إذا بات مؤمن جائعًا فلا مال لأحد»(٤). والمهم معرفة أن الإسلام يقرر ذلك إذا وجدت الحاجة إليه، فإذا انتفت الحاجة أو لم توجد، لم يكن للإمام أو الحاكم الحق في فرض قدر زائد عن الزكاة الواجبة. فهذه الزيادة لا تترك لهوى الحاكم يفرضها كما يشاء؛ بل لابد أن تظهر الحاجة الماسة، ويقدر الخبراء المتخصصون قدرها، ونسبة الزيادة المطلوبة لمواجهتها، حتى يقوم الحاكم بفرضها وجبايتها، وهذا المبدأ الذي أتى به الإسلام تسير عليه الدول الحديثة الآن باسم الضرائب التصاعدية، فكلما زادت الثروة، زادت نسبة الضريبة عليها في الوقت الذي تخفف فيه الضرائب عن صغار الممولين، على أن يصاحب فرض هذه النسبة، حسن تصرف وتدبير، وأمانة في صرف هذه الأموال في الوجوه التي أخذت من أجلها، بحيث يوضع كل قرش في محله المناسب له، حتى تستفيد الأمة فعلًا من تحصيل هذه الأموال، وتحس أثرها في رفع مستواها، وتحسين خدماتها لا أن تجبى ثم تنهب، وتذهب في بحار الإسراف والبذخ، وتضيع ثمارها بسوء التصرف فيها، حتى لا نكون بذلك قد فتحنا طاقةً من الذهب تتدفق منها الأموال في أيدي العابثين والسفهاء، فالشرط الذي لابد منه في فرض قدر زائد عن الزكاة، هو ضرورة توفر الأمانة التامة في الحاكم مع حسن التصرف في هذه الأموال، وهذا هو العدل، فإذا لم يتوفر هذا الشرط، لم يكن من الجائز شرعًا الإقدام على مثل هذه الخطوة، وتحميل الشعب ثمن رفاهية أفراد قليلين منه وعبثهم(٥).

وأخيرًا وليس آخرا إذا وجب على رب المال زكاة في ماله بمقدار مثلًا شاة في غنمه، أو ناقة في إبله، أو إردب في قمحه، أو قنطار في ثمره وفاكهته، فهل يتحتم عليه أن يخرج هذه الأشياء عينها، أم يخير بينها وبين أداء قيمتها بالنقود مثلًا؟! وهل إذا أخرج

القيمة أجزأته وصحت زكاته؟ اختلف في ذلك الفقهاء على أقوال؛ فمنهم من يمنع ذلك، ومنهم من يجيزه بلا كراهة، ومنهم من يجيز في بعض الصور دون بعض. وأكثر المتشددين في منع إخراج القيمة هم الشافعية والظاهرية، ويقابلهم الحنفية فهم يجيزون إخراجها في كل حال، وعند المالكية والحنابلة روايات وأقوال. وسبب الخلاف يرجع إلى اختلاف زوايا النظر إلى حقيقة الزكاة: هل هي عبادة وقربة لله تعالى أم حق مرتب في مال الأغنياء للفقراء، أي ضريبة مالية مفروضة على مالك النصاب؟ والحق أن الزكاة تحمل المعنيين، ولكن بعض الفقهاء كالشافعي وأحمد في المشهور عنه وبعض المالكية، وكذلك الظاهرية، غلبوا معنى العبادة والقربة في الزكاة، فحتموا على المالك إخراج العين التي جاء بها النص، ولم يجوزوا له إخراج القيمة. وغلب أبو حنيفة وأصحابه وآخرون من الأئمة الجانب الآخر: أنها حق مال قصد به سد خلة الفقراء، فجوزوا إخراج القيمة.

ويذهب فضيلة الشيخ يوسف القرضاوي إلى رجحان ما ذهب إليه الحنفية في هذا المقام فيقول: والواقع أن رأي الحنفية أليق بعصرنا وأهون على الناس، وأيسر في الحساب وخاصةً إذا كانت هناك إدارة أو مؤسسة تتولى جمع الزكاة وتفريقها، فإن أخذ العين يؤدي إلى زيادة نفقات الجباية بسبب ما يحتاجه نقل الأشياء العينية من مواطنها إلى إدارة التحصيل، وحراستها، والمحافظة عليها من التلف، وتهيئة طعامها وشرابها وحظائرها إذا كانت من الأنعام من مؤنة وكلف كثيرة، مما ينافي مبدأ الاقتصاد في الجباية. وقد روي هذا الرأي عن عمر بن عبد العزيز والحسن البصري وإليه ذهب سفيان الثوري، وروي عن أحمد مثل قولهم في غير زكاة الفطر، قال النووي: وهو الظاهر من مذهب البخاري في صحيحه، وقال ابن رشيد: وافق البخاري في هذه المسألة الحنفية، مع كثرة مخالفته لهم. والحاجة والمصلحة في عصرنا تقتضي جواز أخذ القيمة ما لم يكن في ذلك ضرر بالفقراء وأرباب المال(٦).

* * *

المراجع

(١) من كتاب إسلام لا شيوعية عبد المنعم النمر ص٢٨٣

(٢) كتاب لا للفقر في ظل القرآن أحمد سعيد ص٨٥

(٣) من كتاب إسلام لا شيوعية عبد المنعم النمر ص٢٨٤و٢٨٥

(٤) كتاب لا للفقر في ظل القرآن أحمد سعيد من ص٨٦ إلى ص٨٩

(٥) من كتاب إسلام لا شيوعية عبد المنعم النمر ص٢٨٨

(٦) فقه الزكاة دراسة مقارنة لأحكامها وفلسفتها في ضوء القرآن والسنة يوسف القرضاوي ج٢ من ص٧٩٩ إلى ص ٨٠٨

البلاغة النبوية

بقلم: الدكتور: صبحي الصالح

شغل الناس عن بحث البلاغة النبوية أمران، أحدهما يتعلق بالقرآن، والآخر يتصل بالحديث.

أما القرآن فشغل الناس حديثهم عن إعجازه، حتى أخذ بعضهم بالصرفة، وزعموا أن الله صرف الناس عن الإتيان بمثل هذا القرآن.

وأما الحديث فحالت مكانته التشريعية دون إسهاب البحث في مكانته الأدبية؛ بل تجرأ نفر من العلماء على أن ينكروا الاحتجاج بالحديث في اللغة والنحو، وتجرأ آخرون فأنكروا الاحتجاج بالحديث الآحادي حتى في التشريع كما سنوضح ذلك بعد قليل.

ولئن عذرنا القوم على انصرافهم بإعجاز القرآن عن بلاغة الرسول، فأنى لهم العذر وقد صرفهم فقه الحديث عن أدب الحديث؟

إن البلاغة النبوية تدور حول محور الحديث، وكما اشتمل الحديث على مواد غنية صلحت لاستنباط التشريع احتوى مواد أخرى لا تقل عنها غنى تصلح أطرا لبيان الرسول أفصح من نطق بالضاد؛ بل المواد التي صلحت أصولًا للفقه من وجه صلحت بنفسها صورًا للفصاحة من وجه آخر.!

وبلاغة أهل البيان إما شعر وإما نثر، ولكن البلاغة النبوية برئت لأسباب دينية – من الشعر، وخلصت للنثر، فكان نطاقها الأساسي الحديث المنثور. بيد أن أطر هذا الحديث تعددت تبعًا لتعدد مدلوله الاصطلاحي، فكان في كمه وكيفه مغنيًا برائع نثره عن جمال الشعر وسحره.

ولا بد أن ننبه هنا إلى ضرب من التشابه آنسناه بين مصطلحات المحدثين وما نود أن نقترحه من مصطلحات أدبية تعيننا على إماطة اللثام عن وجوه البلاغة النبوية. فالنثر البياني النبوي هو ما يسمى عند المحدثين «بالحديث» و«السنة» على مذهب من يقول بترادف هذين اللفظين[1] وهو على كل حال إما حديث شفوي، وإما خطبة مرتجلة، وإما كتاب

مدون. وحتى على الرأي القائل بانتفاء الترادف بين ذينك المصطلحين، ليس ضروريًا حصر نطاق دراستنا البلاغية فيما أطلق عليه لفظ «الحديث» بوجه خاص، ابتغاء التأكيد أنه وحده يشتمل على فنون قولية، مرتجلة أو مكتوبة؛ لأنا لو تناسينا موارد التسمية الاصطلاحية فيما عزي إلى النبي من روايات لوجدناها جميعًا ترتد إلى «الأخبار»[٢] ونحن في بحثنا بلاغة الرسول ندور حول محور واحد: هو ما نقل من قول الرسول وأيدته أعماله.

وإنما ألححنا كرةً أخرى على المادة القولية؛ لأنها تشتمل على الصياغة الأدبية اشتمالها على الفكرة التي أراد الرسول بيانها: لكنا – من غير أن نخوض في النزاع بين الشكل والمحتوى – لا يسعنا أن نحصر بحثنا – ولو بلاغيًا – في المادة القولية؛ إذ نحتاج إلى المحتوى الفكري الذي حكى عن الرسول مستلهمًا من قوله وفعله وسيرته المطهرة، وإن لم يثبت أنه نطق بالذات بما رووا من ألفاظه وتراكيبه.

والحق أن موضوع «الحديث» لا يغاير موضوع «السنة»، وبالرغم من أن كلًا منهما أطلق في كثير من المواطن على غير ما أطلق عليه الآخر، وبالرغم من أن رد لفظيهما إلى أصولهما التاريخية يؤكد وجود بعض الفروق الدقيقة بينهما لغةً واصطلاحًا[٣] نستنتج من الرأي السائد بين المحدثين، ولا سيما المتأخرين منهم، أن لا مانع من وضع أحدهما مكان الآخر، ففي كل منهما إضافة قول أو فعل أو تقرير أو صفة إلى النبي الكريم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[٤].

على أنا – وإن لم نحصر نطاق دراستنا البلاغية فيما أطلق عليه لفظ «الحديث» – نؤثر أن نلتزم غالبًا في جونا الأدبي هذا اللفظ الأشيع أدبيًا، حتى نفيء إلى ظلاله الموحية؛ إذ لو استخدمنا لفظ «السنة» عوضًا عن لفظ «الحديث» لاصطبغ بحثنا – عن غير قصد منا – بلون فقهي أو شرعي، أبعد ما يكون عما تصدينا لإبرازه من أدب الرسول.

وإن ذلك ليملي علينا – فيما نستشهد به من نصوص وأمثلة – أن نعرض الأحكام الشرعية التي قد نضطر إلى شرحها عرضًا موجزًا لا نفصله إلا بالقدر الضروري لإلقاء الضوء على أصل الفكرة، باعتبار هذا الأصل أحد العنصرين المقومين لكل عمل أدبي، ولكل فن قولي. ولكي يصح هذا الاعتبار نحسب القارىء أكثر ارتياحًا إذا عبرنا له «ببلاغة الحديث» لا «ببلاغة السنة».

ومـع ذلـك عنونـا بحثنـا «البلاغـة النبويـة» لا «أدب الحديث». وإن هذه التسمية لتشي بشيء آخر: وهـو أن الأدب الخلقـي الاجتماعـي الـذي حفـل بـه الحديث حتى عنونت به بعض المصنفات – قد يظن أنـه مـا نرمـي إلى تبيانـه بوجـه عـام، مـع أن مرادنـا محصور في الجانب الفني تصويرًا وتعبيرًا لا الجانب الاجتماعي فضيلةً وخلقًا.

وذلـك لا يمنـع أمـرين: أحـدهما أنـا بعـد هـذا الاحتراز – قد نستعمل – إن شئنا – عبارة «الأدب النبـوي» أو «أدب الحـديث» مـا دام السياق يعـين أن الغرض بياني أو بلاغي محض. والآخر أنا بعد هذا الاحتراز أيضًا قد نبرز ما يطيب لنا إبرازه من شمائل الرسـول ومكارمـه، لا عـلى أنهـا دراسـة تفـصيلية لفلسفته الخلقية؛ بـل عـلى أنهـا أنـماط مـن نظرتـه إلى جانـب مـن جوانـب الحيـاة، وتلـك النظـرة تـشكل حينئـذ جزءًا لا يتجزأ مـن عنـصر الفكـرة في العمـل البياني الرفيع.

نخلص من ذلك كله إلى أن قطب دراستنا هو الحـديث المنثـور الـذي يـشمل فنـون الأدب النبـوي مرتجلةً ومكتوبةً، كأنها انعكاسات لصوت الرسول على شريط مسجل؛ إذ ارتسمت فيها حركات روحه وخفقات قلبه، وتجلت عليها أصالة تفكيره، وألوان تصويره، ونغمات تعبيره.

ولكـي نظـل في طـاق هـذا الحـديث المنثـور مفترضـين أنـه غالبًـا نتـاج الرسـول الأدبي فكـرةً وأسـلوبًا، ينبغـي لنـا – اصـطلاحًا – أن نـشترط في الحـديث الـذي ندرسـه أن يكـون مرفوعًـا بوجـه صريح. والمشهور في المرفوع أنه ما أضيف إلى النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ خاصـةً مـن قـول أو فعـل أو تقريـر، سواء أأضافه إليه صحابي أم تابعي أم من بعدهما، وسواء اتصل إسناده أم لا(٥).

ومن الواضح أنا – بتعريف المرفوع على هذا النحـو – إنـما لاحظنا انتهاء متن الحديث إلى النبي الكـريم بقطـع النظـر عـن إسـناده متـصلًا أو غـير متصل، محكومًا بصحته أو ضعفه: ذلك بأن القول والفعل والتقرير صالحةً لأن تسمى «متن الحديث» مـن غـير التفـات إلى حـال إسنادها حين ينظر إليها لذاتها(٦).

ومـن الواضـح أيـضًا أنـا – باشـتراطنا المرفـوع «الصريح» – احترزنا عن المرفوع حكمًا إلى النبي من قـول أو فعـل أو تقريـر، وهـو الـذي يقـال لـه «مـا في حكـم المرفـوع»(٧)؛ لأن أمثلتـه وتعريفاتـه تـرد إلى

«الموقوف» الذي ينتهي متنه إلى الصحابي لا إلى الرسول، ومثله إذا قبل في الأحكام الشرعية فلفرط حاجتنا إلى الاحتجاج بالسنة العملية التي حكيت سندًا عن الرسول وإن كانت متنًا من ألفاظ الصحابي[8].

وحصر الحديث المنثور في نطاق «الرفع الصريح» يظل «احتماليًا»، أو «افتراضيًا» لا يلحظ فيه – كما أوضحنا – إلا انتهاء متنه غالبًا إلى النبي، وذلك لا يكفي للاستيقان من صحته سندًا؛ بل ولا متنًا، وذلك لا يكفي أيضًا – من زاوية أخرى – لإدارة بحثنا التحليلي الأدبي حول فكرته وأسلوبه، وألفاظه وتراكيبه، فلنخط خطوةً أخرى، ولنضف إلى شرط الرفع شرط الاتصال؛ ليكون كل واحد من رواة الحديث سمعه ممن فوقه حتى انتهى ذلك إلى آخره وحينئذ نسمي الحديث مسندًا.

لكن المسند – رغم غلبة استعماله في المرفوع المتصل، على الأرجح – لا يجعل منه مجرد إسناده حديثًا «صحيحًا»؛ لأن المسند – ومثله المرفوع والمتصل – مصطلحات مشتركة بين الصحيح والحسن والضعيف فلا بد – ليكون الحديث «المسند» الذي ندرسه مقبولًا – من أن يكون على الأقل «حسنًا» ونفضل عليه ما يكون «صحيحًا»، ولو «آحاديًا» أما ما اصطلح على تسميته «بالضعف» فلا مكان له في دراستنا؛ لأن المفروض في مثله أنه مردود وأنه لم يرد إلا لغلبة الظن بأنه ليس من كلام النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ونحن إنما نتناول بدراستنا الأدبية التحليلية ما رجحنا أنه تعبير النبي أو ما يمكن أن يكون نظيره صادرًا عن النبي الكريم. وإلا فكيف نتقصي خصائص البلاغة النبوية من ألفاظ وتراكيب لم نكد نستيقن من صحة عزوها إلى أفصح من نطق بالضاد!

* * *

الهوامش:

(١) انظر الملل والنحل للشهرستاني، هامش الفصل في الملل والأهواء والنحل لابن حزم ج١ ص ٦٤.

(٢) كليات أبي البقاء ص ١٥٢.

(٣) قارن بكتابنا علوم الحديث ومصلحه ص ٩ الطبعة الخامسة (دار العلم للملايين – بيروت)

(٤) المرجع السابق ص ٣.

(٥) توضيح الأفكار (الصنعاني) ١/٢٥٤ وقارن بشرح النخبة «لابن حجر» ٢٦.

(٦) قارن بكتابنا «علوم الحديث» ٢١٧.

(٧) شرح النخبة ٢٧–٢٨.

(٨) قارن بتوضيح الأفكار ١/٢٦٢.

* * *

من تـاريخ الجامعة الإسلامية: دارالعلوم/ ديوبنـد

(الحلقة ١٢٢)

بقلم: **الأستاذ/ سيد محبوب الرضوي الديوبندي -رحمه اللّه-**
(المتوفى ١٣٩٩هـ / ١٩٧٩م)
ترجمة وتعليق: **محمد عارف جميل القاسمي المباركفوري**(*)

٨- العلامة محمد إبراهيم البلياوي رحمه الله[١]:

ولـد في عائلـة علميـة مـن مدينـة «بليـا» في شرق ولايـة «أترابـراديش»، وانحـدرت عائلتـه مـن مديريـة «جهنك» في «بنجاب» إلى «جونفور»، ثم نزل في «بليا» بعـد مـدة قليلـة. وقـرأ في «جونفـور» مبـادئ دراسـة الفارسية والعربية على الطبيب الشهير الحكيم جميل الـدين النكينـوي. وقـرأ كتـب المعقـولات عـلى الـشيخ فـاروق الجريـاكوتي، والـشيخ هدايـة الله خـان – تلميـذ الـشيخ فـضل حـق الخـير آبـادي-، وجلـس إلى الـشيخ عبد الغفار-أحد تلامذة الشيخ رشيد أحمد الكنكوهي -رَحِمَهُ ٱللَّهُ- لدراسة العلوم الدينية. والتحق بدارالعلوم /ديوبنـد في أواخـر عـام ١٣٢٥هـ، وقـرأ بهـا «الهدايـة» و«الجلالين» و نحوهما، وتخرج منها عام ١٣٢٧هـ.

وبعد أن تخرج في العلوم نُصب مدرسًا ثانيًا في المدرسـة العاليـة /فتحفـوري، ثـم اشـتغل بالتـدريس بعض المدة في مدرسة عمري/مراد آباد، واستدعي إلى دارالعلـوم/ديوبنـد عـام ١٣٣١هـ. وولي رئاسـة هيئـة التـدريس منـذ عـام ١٣٤٠هـ إلى ١٣٤٤هـ في مدرسـة دارالعلـوم/ مئـو بمديريـة أعظمكـره، و المدرسـة الإمداديـة/دربنجـه في ولايـة «بيهـار»، ثـم استدعي مـرةً أخـرى عـام ١٣٤٤هـ إلى دارالعلـوم/ ديوبنـد. وجـاء ذكـره في التقريـرات الـسنوية لعـام ١٣٣٣هـ بما يلي:

«يتمتع المولوي محمد إبراهيم بالتمكن الكامل من العلوم كلها، ويدرِّس كتب المعقول والفلسفة خـير تـدريس، ويقـوم بتـدريس الكتـب النهائيـة في الفلسفة والكلام من «صدرا»، و«شمس بازغة»، و«القاضي مبارك»، و«حمد الله»، و«الأمور العامة» بالإضافة إلى «شرح المطالع»، و«شرح الإشارات»، ونحوهـا. ويميـل الطـلاب إليـه كثيـرًا، وهـو حـسن العرض للدروس، ومدرس صالح كفء ذو صيت وقيمة كبيرة».

(*) أستاذ الحديث والأدب العربي بالجامعة.

وفارق دارالعلوم مرةً أخرى عام ١٣٦٢هـ، فولي أولًا رئاسة هيئة التدريس في الجامعة الإسلامية/ دابيل، وبعد مدة قليلة ولي رئاسة التدريس في المدرسة العالية/فتحفوري، ثم ولي رئاسة هيئة التدريس في مدرسة «تشاتغام» في مديرية «هات هزاري» من «بنغال»، وفي نهاية المطاف عاد إلى دارالعلوم، وولي رئاسة هيئة التدريس فيها بعد وفاة الشيخ المدني عام ١٣٧٧هـ واستمر في هذا المنصب حتى آخر لحظة من حياته. ويتجاوز عدد تلامذته الآلاف، ينتشرون علاوةً على شبه القارة الهندية في كثير من دول آسيا وإفريقية.

كان العلامة البلياوي وحيد دهره في العلوم والفنون كلها خاصةً في الكلام والعقائد، وقام بخدمات بارزة في علم التفسير والحديث والعقائد والكلام وغيرها من العلوم، واستمر في التدريس والإفادة مدة ستين عامًا اعتبارًا من ١٣٢٧هـ إلى ١٣٨٧هـ. وكان الطلاب يحضرون دروسه بنهم وشوق كبيرين، ويتمنون الاستفادة من إفاداته العالية، وكانت دروسه تجمع بين الاختصار والشمول بأسلوب وقور جدًّا. وكان له علاوةً على ذلك ملكة في إثارة النكت وحل المسائل العويصة بالطرائف والظرائف، وكان يطبق القصص والحكايات على المسائل تطبيقًا يتضح به نواحي المسألة كلها. ومن خصائص دروسه أن تلامذته كان يتأصل فيهم المناسبة مع الفن، وينفتح عليهم أبواب العلم والمعرفة. وكان وحيد عصره في العقائد والكلام والمنطق والفلسفة، و يستخدم الدراية أكثر من الرواية في الحديث، وله نظرة عميقة في علوم الشيخ النانوتوي رحمه الله، وكان يجمع بين التتلمذ على شيخ الهند ومبايعته.

ومن أعمال العلامة البلياوي رحمه الله «رسالة المصافحة»، و«رسالة التراويح» باللغة الأردية، و له «رسالة أنوار الحكمة» في الفارسية، وتشتمل هذه الرسالة على مباحث المنطق والفلسفة، وله تعليقات على كل من «الميبذي» و«الخيالي» أيضًا، وقد ضاعت. وكان في آخر عمره يعمل هامشًا على سنن الترمذي، ولم يكتمل.

وكان مختل الصحة منذ عهد بعيد، فلبى نداء ربه في ظهيرة ٢٤/رمضان المبارك عام ١٣٨٧هـ، ووري جسمانه في المقبرة القاسمية.

٩- الشيخ شريف حسن الديوبندي:

من سكان ديوبند، ولد فيها في ٩/أغسطس عام ١٩٢٠م، وحفظ بها القرآن الكريم على الحافظ عبد الخالق الراحل، ثم قضى ثلاث سنوات في مدسة «بيهت» في «سهارنفور»، وقرأ بها مبادئ الفارسية والعربية. ثم التحق بدارالعلوم/ديوبند،

وأكمل المنهج الدراسي النظامي. وتخرج عام ١٣٥٨هـ في دورة الحديث الشريف.

وبعد أن أكمل دراسته ولي رئاسة التدريس في مدرسة إمداد العلوم بالخانقاه الإمدادية في «تهانه بهون» عام ١٣٦٠هـ/١٩٤١م. وكان يتمتع بالمكنة الكبيرة من العلوم والفنون كلها، وحظي بمناسبة خاصة مع الحديث والإفتاء ببركة مصاحبة حكيم الأمة الشيخ أشرف علي التهانوي رحمه الله، و في نحو عام ١٣٦٤هـ ولي رئاسة هيئة التدريس في مدرسة «إشاعة العلوم/ بريلي» وكان يجمع بها بين تدريس الحديث ومسؤولية الإفتاء. ثم ولي منصب شيخ الحديث في الجامعة الإسلامية/دابيل بعد تسع سنوات، وقام بتدريس صحيح البخاري والترمذي بها.

واستدعي إلى دارالعلوم/ديوبند عام ١٣٨٣هـ، وكان له شغف كبير بعلم الحديث، فتولى تدريس صحيح البخاري بعد الشيخ فخر الدين أحمد، وهومن أعماله العبقرية. وقام بمسؤولية شيخ الحديث فعلًا حتى آخر لحظة من حياته. وقضى حياته في التدريس والإفادة، وخدمة طلاب العلوم الدينية. وكانت دروسه تفيض بالمواد العلمية، ويقوم طلاب الحديث عن دروسه مطمئنين مرتاحي البال، واستمر في الإفادة حتى قبل وفاته بعدة ساعات.

كان الشيخ شريف حسن مثالًا لعلماء السلف في العلم والعمل والتقوى والطهر وفضائل الأخلاق والشمائل، وكان يمتاز عن علماء عصره بتبحره في العلم، والعلاقة الخاصة بعلم الحديث وشغفه به، وزكاء نفسه. لايلقى أحدًا صغيرًا أو كبيرًا إلا بوجه طلق. وكان طيب السيرة والسريرة، مطبوعًا على التبسم إلى كل واحد.

توفي في الليلة المتخللة بين ١٤، و١٥/جمادى الآخرة عام ١٣٩٧هـ عن عمر بلغ ٥٨ عامًا بنوبة قلبية، بعد مرض قصير المدة، رحمه الله رحمةً واسعةً، وثوي جسده في المقبرة القاسمية.

١٠- الشيخ السيد فخر الحسن:

ولد في وطنه في قصبة «عمري»، من مديرية «مراد آباد»، في ١٠/رجب عام ١٣٢٣هـ. وأرخوا لاسمه من «مظهر حسين»، وقرأ القرآن ومبادئ الدين ومبادئ الفارسية على الحافظ نسيم الدين والحافظ عبد القادر الأمروهوي. وكان والده أمينًا في مكتبة مدرسة شاهي/مراد آباد، فالتحق بها في نحو عام ١٣٣٥هـ، وأكمل بها دراسة الفارسية، وقرأ مبادئ كتب المنهج الدراسي النظامي على والده، ثم التحق بجامعة مظاهر علوم/سهارنفور، وأكمل دراسة المرحلة المتوسطة، والتحق بدارالعلوم/ديوبند عام ١٣٤٣هـ، وتخرج منها في دورة الحديث الشريف عام ١٣٤٧هـ.

وبعد أن أكمل دراسته ولي التدريس في المدرسة العالية/فتحفوري، ثم فارقها إلى «بيهار»، وتعين لتدريس بعض كتب الصحاح في مدرسة شمس العلوم/بتنه، ثم عاد إلى المدرسة العالية /فتحفوري مرةً أخرى بعد سنة ونصف. وفي نهاية المطاف عُيِّنَ رئيسًا لهيئة التدريس بالمدرسة العالية. وفي عام ١٣٦٢هـ استدعي إلى دارالعلوم/ديوبند وعُيِّنَ مدرسًا في الطبقة العليا، وأسند إليه تدريس «صحيح مسلم» والأمور العامة وغيرها. ولقيت دروسه في «صحيح مسلم» و«تفسير البيضاوي» في دارالعلوم صيتًا خاصًا، وله أمالٍ على «البيضاوي» سماه «التقرير الحاوي»، وقد طبع منه المجلد الأول، ولقي القبول العام. وكان له مكنة أيضًا في الوعظ والخطابة.

ولي رئاسة هيئة التدريس في دارالعلوم/ديوبند عام ١٣٨٧هـ بعد وفاة العلامة محمد إبراهيم البلياوي رحمه الله، واستمر عليه إلى الآن.

وكان له إجازة وخلافة من الشاه عبد القادر الرائفوري رحمه الله.

١١- الشيخ نصير أحمد خان:

ولد في قرية «بسي» من مديرية «بلند شهر» في ٢١/ربيع الأول عام ١٣٣٧هـ، وبعد أن حفظ القرآن الكريم قرأ جميع كتب المقررات الدراسية الفارسية والعربية حتى النهاية في مدرسة منبع العلوم/كلاؤتهي بمديرية «بلند شهر»، والتحق عام ١٣٦٢هـ بدورة الحديث الشريف بدارالعلوم/ديوبند، ونجح في الدراسة. وفي عام ١٣٦٣هـ أكمل دراسة الفنون، وقراءة حفص والسبع والعشر.

وبعد أن أكمل دراسته عُيِّن مدرسًا في دارالعلوم/ديوبند في أواخر عام ١٣٦٥هـ، وفي عام ١٣٩١هـ نظرًا إلى كفاءاته الإدارية جمع له بين التدريس والإفادة وبين نيابة رئيس الجامعة، ثم شغل منصب شيخ الحديث عام ١٣٩٧هـ، وكانت شخصيته تجمع بين الكفاءات العلمية والإدارية.

وكانت دروسه في الحديث النبوي تلقى الإعجاب والقبول عامةً، وأماليه في الدروس قريبة الفهم منسقة مشفوعة بالأدلة، وكان له تمكن كبير من علم الهيئة، وله حاشية على رسالة الفتحية في الهيئة، وهي من المقررات الدراسية في دارالعلوم/ ديوبند.

وكان مطبوعًا على البساطة، والتواضع وهضم الذات، والتناغم بين الظاهر والباطن، هشًّا بشًّا حسن الخلق.

رؤساء دارالعلوم:

١- الحاج السيد محمد عابد:

الحاج محمد عابد رجل صالح تقي نقي ذو تأثير ونفوذ، وامتد صيته في فن الرقى إلى أماكن بعيدة. وله مشاركة في بناء دارالعلوم/ديوبند، وإليه

أسندت إدارة دارالعلوم/ديوبند أولًا، ويقول الشيخ أشرف علي التهانوي في مثنويه المسمى «زير وبم»[٢] ما معناه:

«عامل كامل، ولي، رجل الله

رجله في رجل فخر الأنبياء

له جمال، له جمال،وله شأن

معدن الحلم،ومخزن الخلق الحسن

رقاه وتعاويذه مثل نقوش القدر

وفيوضه للعامة والخاصة مثل البدر''

ولد الحاج محمد عام ١٢٥٠هـ/١٨٣٤م. وقرأ القرآن الكريم والفارسية، ثم توجه إلى دهلي لدراسة العلوم الدينية، وغلبه الرغبة في التصوف أيام دراسته غلبةً حالت دون إكمال دراسته، ونال خلعة الخلافة من عدد من الصالحين، وتشرف بالخلافة من كل من ميا جي كريم بخش الرامفوري، والحاج إمداد الله المهاجر المكي قدس سره.

وكان لشيخ الحاج محمد عابد المدعو/ميان جي كريم بخش الرامفوري خلافة من المولانا محمد حسن الرامفوري – المتوفى١٢٧٩هـ-، ورأى ميان جي في المنام أن السماء فيها نجم كبير، وحوله نجوم كثيرة، ووقع النجم الكبير في حضنه، فقال ميان جي في الصباح للمريدين: سيبايعني واحد من الأشراف، يتبع السنة النبوية، ويستفيد منه الناس كثيرًا. ويقوم بأعمال دينية كثيرة[٣].

وأقام الحاج محمد عابد في مسجد «تشته» ستين عامًا، واشتهر أنه لم يفته التكبيرة الأولى طوال ثلاثين سنة، وواظب على صلاة التهجد مواظبةً لم يفته الصلاة طوال ستين سنةً. وكان رجلًا صالحًا ذا كشوفات وكرامات، وكان له تمكن كبير في الرقى والتعاويذ علاوةً على الإرشاد و التذكير وتزكية القلوب، وكان يفد إليه الناس من أقصى البلاد، ويحققون آمالهم ويصدرون منه. و رغم زحمة الأعمال الكثيرة كان يلتزم ضبط أوقاته ويتقيد بها، فكان يقوم بكل عمل في موعده.

وكان يستيقظ في آخر الليل، ويتهجد ويقوم بالأوراد، فإذا فرغ منها صلى الصبح في مسجد «تشته»، ثم يتلو القرآن الكريم بعد الصلاة، ويتوجه إلى حجرته، ويبايع من يرغب في البيعة، ويقدم التعاويذ لمن يرغب فيها، ويستمر ذلك حتى الظهيرة، ثم يحضر المتوسلون في الطريقة بعد الظهر، ويذكر الله تعالى في حينه، ويستمر ذلك حتى العصر، وتعود ختم الخواجكان بعد المغرب، وكان ينام بعد العشاء مبكرًا.

وكان طلاب التعاويذ يحرجونه أشد الإحراج أحيانًا، ولكن بلغ من التواضع وحسن الخلق أنه لم يعبس في وجوههم قط، وكان كثير العناية باتباع

السنة النبوية، وكان يقول: «شيخ بلا عمل أشبه بجندي بلا سلاح، وعلى الشيخ أن يبدي العامل للتكتم على نفسه». وكان أحد مشايخ الطريقة الجشتية الصابرية، وكله زهد ورياضة.

وذات مرة بلغه أن أحد مريديه وهو الحاج محمد أنور الديوبندي قد أعرض عن الطعام والشراب كليًا للتغلب على نفسه، فكتب إليه مؤكدًا: «هذا يخالف السنة، لابد من الطعام والشراب على السنة النبوية، وإن قل»(٤).

جاء في «أنوار قاسمي» نقلًا عن «ترجمة مخطوطة»: كان الحاج محمد عابد شخصيةً تحمل الجاه والنفوذ في ديوبند، وعابدًا وزاهدًا، وكان يعترف بصلاحه سكان ديوبند صغيرهم وكبيرهم، ورجالهم ونساؤهم، وشيوخهم. وسخَّرت فيوضه الروحانية قلوب ديوبند، وما حولها من الأكناف والأطراف؛ بل قلوب الناس في الولايات الأخرى. وكان يجمع بين العبادة والزهد والرقية، وكانت تعاويذه تفعل فعل الترياق في المرضى، وكانوا يذكرون الله تعالى إذا رأوه.

واشتهر الحاج محمد عابد بالالتزام والاستقلال النفسي، والعزيمة وحسن التدبير، ورغم أنه اعتزل الدنيا؛ ولكن كان إذا استشاره أحد أشار عليه إشارة الذكي الكبير صاحب الدنيا»(٥).

وساق في «سوانح قاسمي» نقلًا عن «ترجمة مخطوطة» أنه كان سكان ديوبند على منتهى الاعتقاد والحب له، وانتفع كثير من الخلائق بشخصيته النافعة.

وكان يعترف بتأثير تعاويذه حتى أتباع الأديان الأخرى، وجعل ما كان يملكه من دار وأرض وحديقة في سبيل الله تعالى وعاش حياته متوكلًا على الله تعالى(٦).

وكان يهتم كثيرًا بضبط الأوقات والأعمال، فيقول الشيخ محمد طيب النانوتوي رحمه الله: «لايعجز عارفه أن يخبر بأن الحاج محمد عابد في كذا من الأعمال في حينه، فإذا توجه إليه أحد لينظر صدق القائل وجده في عمله ذلك»(٧).

جاء في «أشرف السوانح» عن الشيخ أشرف علي التهانوي قوله: «كنت أعتبر الحاج محمد عبدًا رجلًا صالحًا مسبقًا، ولكن لم أكن أظن أنه شيخ ومربٍّ أيضًا، ثم كشف لي اعتراضات الباطنة بجوابه الشافي فعلمت أنه على المنزلة العالية من المشيخة والتربية»(٨).

وأول من بدأ بحركة جمع التبرعات الشعبية لصالح دارالعلوم/ديوبند هو الحاج محمد عابد رحمه الله. قال الحاج فضل حق في ترجمة الشيخ النانوتوي المخطوطة: «ذات يوم اتخذ الحاج محمد عابد وقت الإشراق من المنديل الأبيض كيسًا، ووضع فيه ثلاث روبيات من ماله، وتوجه وحده إلى المولوي

مهتـاب عـلي الراحـل في مـسجد «تـشته»، فتـبرع المولوي مهتاب بست روبيات بوجه طلق، ودعا الله تعالى له. كما تبرع المولوي فضل الرحمن باثنتي عشرة روبيةً، وتبرع كاتب هذه السطور- مؤلف كتاب سوانح مخطوط: الحاج فضل حق - بست روبيات، ثم قام من عنده وأقبل إلى المولوي ذو الفقار علي سلمه، وهو رجل محب العلم، فتبرع في حينه باثنتي عشرة روبيةً؛ و صادف أن تواجد في حينه السيد ذوالفقار علي الثاني الديوبندي أيضًا، فتبرع باثنتي عشرة روبيةً، ثم قام عنه وتوجه هذا الرجل الصالح إلى حي أبي البركات، فاجتمع له مئتا روبية، وارتفع المبلغ إلى ثلاث مئة روبية إلى المساء. ثم انتشر خبره مع الأيام، فآتى من الأكل ما لايخفى. وكان ذلك يـوم الجمعـة في الثـاني مـن ذي القعـدة عـام ١٢٨٢هـ»[٩].

وعـلاوةً عـلى عـضوية المجلـس الاستـشاري بدارالعلوم/ديوبند ولي إدار المدرسة ثلاث مرات: الأولى: منـذ يـوم التأسـيس إلى عـام ١٢٨٤هـ/ ١٨٦٧م، والثانيـة: عـام ١٢٨٦هـ/١٨٦٩م إلى ١٢٨٨هـ/١٨٧١م. والثالثـة: إلى عـام ١٣١٠هـ/ ١٨٩٢م، ومجموع ذلك عشر سنوات.

ومـن ثمـرات مـساعيه بنـاء المـسجد الجـامع في ديوبنـد. واسـتقال مـن إدارة المدرسـة لزحمـة الأعـمال عنـده في نهايـة الأمـر، واسـتفادت دارالعلـوم كثـيرًا بنفوذه وتأثيره، واستمرت في الرقي والازدهار.

تـوفي عـن عمـر بلـغ (٨١) عامًـا يـوم الخمـيس ٢٧/ذي الحجـة عـام ١٣٣١هـ/١٩١٢م، وأرخـوا لوفاته من كلمة «مدار المهام بهشت برين»، ومزيد أحواله في تذكرة العابدين[١٠].

* * *

الهوامش:

(١) وإن ورد ذكر الشيخ فخر الدين أحمد بصفته شيخًا للحديث إلا أنه يجدر ذكر العلامة محمد إبراهيم البلياوي بصفته رئيسًا لهيئة التدريس.

(٢) مثنوي زير وبم نقلًا عن مجلة القاسم، العدد الخاص بدارالعلوم، المحرم الحرام ١٣٤٧هـ، ص ١٩.

(٣) تـذكرة العابـدين، ص ٦٣،٦٤، ط: مطبعـة دهـلي، عـام ١٣٣٣هـ.

(٤) تذكرة العابدين، ص ٦٧.

(٥) أنوار قاسمي ١/٣٥٠، ٣٥١، ط: لاهور.

(٦) سـوانح قاسـمي ٢/٢٣٩، ٢٤١، ط: مطبعـة ناشـيونال، ديوبند.

(٧) أشرف السوانح ١/١٤٩.

(٨) نفس المصدر ١/١٥٠، ٢٤٨.

(٩) سوانح مخطوط نقلًا عن سوانح قاسمي ٢/٢٥٨، ٢٥٩.

(١٠) يعرف الحاج عابد حسين بـ(عابد حسين) و (محمد عابد). وكان يسمي نفسه (محمد عابد) في الكتابات التي اطلعت عليه بخد يده. ويبدو أن اسمه كان عابد حسين، ثم حوله فيما بعد إلى محمد عابد. كما كان اسم الحاج إمداد الله أولًا (إمداد حسين) ثم سمى نفسه بـ(إمداد الله). وأشبه بذلك حصل للحاج عابد حسين.

* * *

الإمام أحمد بن حنبل يصارع المأمون والمعتصم في دعوتهما الأمة للقول بخلق القرآن

بقلم: الدكتور/ عبد الرحمن عميرة

يقول العالم الجليل محمد بن نوح: سمعت هارون أمير المؤمنين يقول: «بلغني أن بشرًا المريسي[1] زعم أن القرآن مخلوق!! علَّي إن أظفرني الله به لأقتلَّنه قتلةً ما قتلها أحد قط».

قال الإمام أحمد بن حنبل: ولما علم بمقولة هارون فكان بشر متواريًا في أيامه نحوًا من عشرين سنةً حتى مات هارون، فظهر ودعا إلى الضلالة.

فلما كانت خلافة المأمون استحوذ عليه جماعة من المعتزلة، فأزاغوه عن طريق الحق إلى الباطل، وزينوا له القول بخلق القرآن!!

واتفق خروج المأمون إلى طرسوس لغزو الروم، فكتب إلى نائبه ببغداد إسحاق بن إبراهيم بن مصعب يأمره أن يدعو الناس إلى القول بخلق القرآن، فلما وصل الكتاب استدعى جماعةً من أئمة الحديث فدعاهم إلى ذلك فامتنعوا، فتهددهم بالضرب، وقطع الأرزاق، فأجاب أكثرهم مكرهين، واستمر على الامتناع من ذلك:

الإمام أحمد بن حنبل، والإمام محمد بن نوح الجنديسابوري. فحملا على بعير وسيرا إلى الخليفة، وهما مقيدان متعادلان في محمل على بعير واحد، فلما كانا ببلاد الرحبة جاءهما رجل يسمى جابر بن عامر، فسلّم على الإمام أحمد، وقال له: يا هذا: إنك وافد الناس فلا تكن شؤمًا عليهم! وإنك رأس الناس اليوم، فإياك أن تجيبهم إلى ما يدعونك إليه فيجيبوا، فتحمل أوزارهم يوم القيامة.

وإن كنت تحب الله فاصبر على ما أنت فيه، فإنه ما بينك وبين الجنة إلا أن تقتل، وإنك إن لم تقتل تمت! وإن عشت عشت حميدًا.

يقول أحمد (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ): وكان كلامه مما قوّى عزمي على ما أنا فيه من الامتناع. فلما وصلا إلى

مدينة الأنبار كان في انتظارهم على الطريق العالم الجليل أبوبكر الأحول[٢]، فسأل أحمد بن حنبل قائلاً: يا أبا عبد الله، إن عرضت على السيف تجيبهم إلى ضلالتهم؟

قال أحمد: لا.

قال أبوبكر: الحمد لله، ثم ودعهما وانصرف.

وسارت القافلة بالإمامين الجليلين حتى اقتربا من عاصمة البلاد، جاءهم رجل – وهو يمسح دموعه بطرف ثوبه – ويقول: يعز علي يا أبا عبد الله، أن المأمون قد سلَّ سيفًا لم يسلّه قبل ذلك، وأنه يقسم لئن لم تجبه إلى القول بخلق القرآن ليقتلنك بذلك السيف.

قال: فجثا الإمام أحمد على ركبته، ورمى بطرفه إلى السماء وقال: «يا إلهي، غرَّ حلمك هذا الفاجر حتى تجرأ على أوليائك بالضرب والقتل! اللّهم فإن يكن القرآن كلامك غير مخلوق فاكفنا شرَّ هذا الرجل!

قال: ولما كان ثلث الليل الأخير جاءنا الصريخ بموت المأمون، ثم جاء الخبر بأن المعتصم قد ولى الخلافة، وقد انضم إليه أحمد[٣] بن أبي داود وأن الأمر شديد فردونا إلى بغداد، ونالني منهم أذى كثير.

ثم ماذا؟ مات صاحبي ابن نوح في الطريق، فصليت عليه ووسدته قبره، وبقيت في سجن بغداد نحوًا من ثمانية وعشرين شهرًا، ثم أخرجوني إلى الضرب بين يدي المعتصم.

* * *

الهوامش:

(١) هو بشر بن غياث المريس أبو عبد الرحمن، فقيه معتزلي، عارف بالفلسفة يرمي بالزندقة، وهو رأس الطائفة المريسية القائلة بالإرجاء أخذ الفقه عن القاضي أبي يوسف وقال برأى الجهمية، وأوذي في دولة هارون الرشيد توفي عام ٢١٨هـ.

[راجع وفيات الأعيان ١-٩١].

(٢) هو عاصم بن سليمان الأحول البصري من حفاظ الحديث ثقة من أهل البصرة، تولى بعض الأعمال فكان بالكوفة على الحسبة. وكان قاضيًا بالمدائن، واشتهر بالزهد والعبادة توفي عام ١٤٢هـ.

[راجع تهذيب التهذيب ٥-٤٢ وحلية الأولياء ٣-١٢٠].

(٣) هو أحمد بن أبي داود بن جرير بن مالك أبو عبد الله أحد القضاة المشهورين من المعتزلة ورأس فئة القول بخلق القرآن ولد بالبصرة عام ١٦٠هـ وكان عارفًا بالأخبار والأنساب. وكان شديد الدهاء. كان قاضي القضاة في دولة المأمون. توفي ببغداد عام ٢٤٠هـ.

[راجع ابن خلكان ١-٢٢ وتاريخ بغداد ٤٤-٤١].

* * *

صور من الزهد
سيد الزهاد (ﷺ)

بقلم: الدكتور/ محمود شيت خطاب

١- يروي أنس بن مالك رضي الله عنه، أنّ فاطمة بنت النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جاءت بكِسْرةِ خبز إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال لها: «ما هذه الكسرة يا فاطمة؟، قالت: «قرص خبزته فلم تطب نفسي حتى آتيك بهذه الكسرة»، فقال النبي ﷺ: أما إنه أول طعام دخل فم أبيكِ منذ ثلاثة أيام».

٢- وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه، أنَّ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يشد صلبه بالحجر من الجوع. وكانت عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها تبكي بعد فراق رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقيل لها: ما يبكيك يا أم المؤمنين؟ فتقول: «ما أشبع فأشاء أن أبكي إلا بكيت، وذلك لأن رسول الله ﷺ كانت تأتي عليه أربعة أشهر ما يشبع من خبز بُرّ».

٣- وخطب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: «والله ما أمسى في آل محمد صاع من طعام»، قال راوي الحديث: وإنها لتسعة أبيات، والله ما قالها استقلالًا لرزق الله، ولكن أراد أن تتأسى به أمته.

٤- وفي حديث عائشة رضي الله عنها أنها قالت: «مات رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وما في بيتي شيء يأْكله ذو كبد إلا شطر شعير في رف لي، وقال لي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إني عرض عليّ أن تجعل لي بطحاءُ مكة ذهبًا، فقلت: لا يارب؛ أجوع يومًا، وأشبع يومًا. فأما اليوم الذي أجوع فيه، فأتضرع إليك وأدعوك. وأما اليوم الذي أشبع فيه، فأحمدك وأثني عليك».

٥- وفي حديث حفصة أم المؤمنين رضي الله عنها قالت: «كان فراش رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في بيته مسحًا نثنيه له ثنيتين فينام عليه، فثنيناه له ليلةً بأربع، فلما أصبح قال: «ما فرشتموا لي الليلة؟» فذكرنا ذلك فقال: «ردوه بحاله فإنَّ وطأته منعتني الليلة صلاتي».

٦- وتقول عائشة رضي الله عنها: «لم يملأ جوف النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شبعًا قط، ولم يبث شكوى إلى أحد.

وكانت الفاقة أحب إليه من الغنى، وإن كان ليظل جائعًا يتلوّى طوال ليلته من الجوع فلا يمنعه

صيام يومه، ولو شاء سأل ربه جميع كنوز الأرض وثمارها ورغد عيشها. ولقد كنت أبكي له رحمةً مما أرى به، وأمسح بيدي على بطنه مما به من الجوع وأقول: نفسي لك الفداءُ، لو تبلَّغت من الدنيا بما يقوتك! فيقول: يا عائشة! مالي وللدنيا.. إخواني من أولي العزم من الرسل صبروا على ما هو أشد من هذا، فمضوا على حالهم فقدموا على ربهم، فأكرم مآبهم، وأجزل ثوابهم فأجدني أستحي إن ترفهت في معيشتي أن يقصر بي غدًا دونهم، وما من شيء هو أحب إِليَّ من اللحوق بإخواني وأخلائي».

قالت عائشة رضي الله عنها: «فما أقام بعد إلا شهرًا، حتى توفي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ».

الصدِّيق الزاهد (أبو بكر)

١- روى زيد بن أرقم، أن أبا بكر رضي الله عنه استسقى، فأُتي بإناء فيه ماء وعسل، فلما أدناه من فِيهِ بكى وأَبكى مَنْ حوله، فسكت وما سكتوا. ثم عاد فبكى حتى ظنوا أَلَا يقدروا على مساءَلته، ثم مسح وجهه وأَفاق، فقالوا: ما هاجك على البكاءِ؟! قال: كنت مع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وجعل يدفع عنه شيئًا ويقول: إِليك عني ... إِليك عني ... ولم أَرَ معه أَحدًا! فقلت: يا رسول الله! أَراك تدفع عنك شيئًا ولا أَرى معك أَحدًا؟ قال: هذه الدنيا تمثلت لي بما فيها، فقلت لها: إِليك عني! فتنحّت وقالت: أَما والله لئن انفلت مني لا ينفلت مني مَنْ بعدك! فخشيت أَنْ تكون قد لحقتني، فذاك الذي أَبكاني».

٢- وروى زيد بن أَرقم عن أَبيه قال: «سمعت عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول: أَمرنا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَن نتصدق، ووافق ذلك مالًا عندي، فقلت: اليوم أَسبق أَبا بكر إن سبقته يومًا. قال: فجئت بنصف مالي، فقال لي رسول الله ﷺ: ما أبقيت لأَهلك؟ قلت: مثله. وأَتى أَبو بكر بكلِّ ما عنده، فقال له رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ما أَبقيت لأَهلك؟ قال: أَبقيت لهم الله ورسوله. قلت: لا أُسابقك إلى شيء أَبدًا».

٣- وفي حديث عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه قال: «دخلت على أبي بكر رضي الله عنه في مرضه الذي توفي فيه، فسلّمت عليه فقال: رأَيت الدنيا قد أَقبلت ولم تقْبِل، وهي جائية، وستتخذون ستور حرير ونضائد الديباج، والله لئن يُقَدَّم أَحدكم فتضرب عنقه في غير حد، خيرٌ له من أَن يخوض غمرات الدنيا».

٤- لقد أَنفق أَبو بكر الصديق رضي الله عنه كل ماله في سبيل الله، ومات متخللًا بعباءَته.

الفاروق الزاهد (عمر)

١- في حديث حفصة أُم المؤمنين رضي الله عنها، أَنه لما اتَّسع على الناس الرزق في عهد عمر رضي الله عنه، وكثر المال قالت له: «يا أمير المؤمنين! لو لبست ثوبًا أَلين من ثوبك، وأَكلت طعامًا هو أَطيب من طعامك؟ فقد وسع الله عزّ وجلّ في الرزق وأكثر من الخير». فقال عمر رضي

الله عنه: «إني سأُخاصمك إلى نفسك، أَما تذكرين ما كان يلقى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من شدة العيش؟»، فما زال يذكرها حتى أَبكاها فقال لها: «والله إِن قلت ذلك، أَما والله لئن استطعت لأُشاركهما – يعني النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والصدِّيق رضي ا لله عنه – بمثل عيشهما الشديد، لعلي أُدرك معهما عيشهما الرخي».

٢– وفي عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه: «قد علمت بأَي شيء فضلنا عمر، كان أَزهدنا في الدنيا».

٣– ويروى أَن عمر رضي الله عنه لما قدم الشام صُنع له طعام من أطيب الأطعمة، فقال: «هذا لنا، فما لفقراءِ المسلمين الذين ماتوا وهم لا يشبعون من خبز الشعير؟». فقال خالد بن الوليد رضي الله عنه: «لهم الجنة!»، فاغرورقت عينا عمر بالدموع، وقال: «لئن كان حظنا في هذا الطعام وذهبوا بالجنة لقد باينونا بونًا بعيدًا».

٤– وقال الأَحنف بن قيس رضي الله عنه: «أَخرجنا عمر في سرية إلى العراق وبلاد فارس وخراسان، فحملنا معنا – واكتسينا، فلما قدمنا على عمر أَعرض عنا بوجهه وجعل لا يكلمنا، فاشتدّ ذلك علينا، فشكونا ذلك إلى ولده عبد الله، فقال: رأى عليكم لباسًا لم يلبسه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ولا الخليفة الصّديق من بعده. فأَتينا منازلنا، فنزعنا ما كان علينا، وأَتينا في البزة التي يعهدها منا، فقام فسلَّم علينا رجلًا رجلًا، واعتنقنا رجلًا رجلًا، حتى كأنه لم يرنا».

٥– وكان عمر رضي الله عنه يخطب الناس وعليه إزار فيه اثنتا عشرة رقعةً.

ويقول علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «رأيت لعمر رضي الله عنه إِزارًا فيه إحدى وعشرون رقعةً من جلد ورقعةً من ثيابنا».

٦– وكان عبد الله بن عمر رضي الله عنهما يقول: «والله ما شمل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في بيته ولا خارج بيته ثلاثة أثوب، وما شمل أَبا بكر في بيته ثلاثة أثواب، غير أَني كنت أرى كساهم إذا أَحرموا: كان لكل واحد منهم مئزر ومشتمل لعلها كلها بثمن درع أَحدكم. والله لقد رأيت النبي ﷺ يرقع ثوبه، ورأيت أَبا بكر يخلل بالعباءَة، ورأيت عمر يرقع جبته برقاع من أَدم وهو أَمير المؤمنين».

٧– ويروي ابن الجوزي عن سنان بن الدؤلي قال: «دخلت على عمر وعنده نفر من المهاجرين، فأَرسل عمر إلى سفط أُتي به من قلعة من العراق، وكان فيه خاتم، فأَخذه بعض بنيه، فأَدخله في فِيه، فانتزعه عمر منه ثم بكى، فقال مَنْ عنده من المهاجرين: تبكي وقد فتح الله عليك وأَظهرك على عدوك وأَقرَّ عينك؟! فقال عمر رضي الله عنه: «إني سمعت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: لا تفتح الدنيا على أُمة إِلَّا أَلقى الله بينهم العداوة والبغضاءَ إلى يوم القيامة، وأَنا أُشفق من ذلك».

هذا الدين

بقلم: الدكتور: محمد سعيد رمضان البوطي

المسلمون اليوم، إذا عددتهم، كثير. كلهم ينطق باسم الإسلام، وكلهم يعلم علمًا مما قد يتعلق به، وما منهم إلا من يرتىء له الآراء، ويتناول الكثير من جوانبه بالنظر والبحث.

ولكن شيئًا من ذلك كله لم يأت بحصيلة، ولم يتقدم بهم إلى غاية، ولم يرفعهم إلى أي شأو مما من شأن الإسلام أن يرفع إليه. حتى سرى من ذلك وسواس إلى ضعاف الإيمان، وراحوا يتهامسون، أو يتساءلون: أين هو وعد الله لعباده بالتوفيق والنصر؟!.

فما هو السبب؟.

مسلمون.. ولكن على طريقتهم الخاصة

السبب أنهم أو أكثرهم يصرون على أن يفهموا الإسلام كما يحبون، لا كما هو ثابت، في حقيقته وذاته. فهم يعجبون بالإسلام من حيث هو عنوان وشعار، ويشعرون بفخر انتسابهم إليه وارتباطهم به. ولكنهم ما إن يواجهوا مضموناته وأحكامه حتى يتبرموا بها أو بأكثرها، وعندئذ يجهدون جهدهم أن يتهربوا من مسؤولياتهم وأعبائها بما يصطنعون من الحواجز الوهمية بينها وبين الإسلام وبما قد يخيلونه إلى الآخرين من أن الإسلام لا يستلزم شيئًا من ذلك كله.

إنهم يعجبون بشعارات الإسلام ويفخرون بانتسابهم إليه، لما قد تختزنه هذه الشعارات في باطنها من البطولات والأمجاد والمظاهر الحضارية التي اصطبغ بها أكثر أحقاب التاريخ الإسلامي.

ولكنهم يتبرمون بالكثير من قيوده وأحكامه، لما قد تفوته عليهم هذه القيود من متعة الحضارة الحديثة ولذة السعي وراء كل طور جديد. فهم من أجل ذلك يشتهون أن يكون الإسلام كما يحبون: نسبًا فخريًا يربطهم بأمجاد الماضي وسبيلًا مفتوحةً تيسر لهم اللحاق بمتعة الحاضر وأماني المستقبل!.

قياس خاطىء

وهم إنما ينساقون إلى هذه الحالة بسبب قياسهم الإسلام على أيّ دين من الأديان الأخرى؛ بل ربما على أي نظام من النظم السائدة!.

فهم ينظرون فيما حولهم، فلا يجدون نظامًا من هذه النظم المختلفة التي تحكم العالم، إلّا وتطور

بيد الحضارة الحديثة أيما تطور؛ بل إنهم لا يجدون دينًا من هذه الأديان الأخرى إلا وقد انساق بيد الرغائب والتطلعات الإنسانية إلى مداها الأخير.

وما هو الإسلام؟. إن هو – في تصور أكثرهم – إلّا مذهب من هذه المذاهب السائدة مهما اختلفت عن بعضها، وإذا كانت الأديان والمذاهب والأنظمة المختلفة إنما تمتد آجالها وتطول أعمارها بمقدار خضوعها لسلطان التطور المدني والحضاري، وبمقدار سيرها في ظل الرغائب والمصالح الإنسانية المتطورة، فإن على الإسلام أيضًا إذا شاء أن يمتد في أجله، أن يخضع مثل هذا الخضوع وأن يسير محتميًا بنفس ذلك الظل.

فمن هنا يرفض من يرفض من المسلمين العود إلى هدى الإسلام في أكثر أحكامه التشريعية، ومن هنا يثور من يثور منهم على حجاب المرأة واحتشامها، ومن هنا يصر من يصر منهم على أن يظل النظام الاقتصادي في الإسلام خاضعًا لقانون الفائدة الربوية، ومن هنا يجادل من يجادل فيهم في سبيل أن يصبغ كثيرًا من الحقائق الاعتقادية في الإسلام بالنظرة الأوربية الحديثة.

إنهم يريدون «الإسلام»ولا يبتغون عن هذا الاسم بديلًا[1]؛ ولكنهم إنما يريدونه عنوانًا تجاريًا قديمًا طالما أكسب محله أرباحًا، واستحوذ على ثقة الغادين والرائحين، كي يرفعوه فوق مخازنهم الجديدة فينالوا به الثقة نفسها وتتحقق لهم الأرباح ذاتها. وهم ليسوا على استعداد لأن يدفعوا لقاء ذلك حتى «بدل الخلو»: القيمة الأدبية للعنوان!.

ويقول قائلهم: وهل شأن الناس مع المذاهب كلها إلا كذلك؟. يروج أحدها لما لقي صاحبه من شهرة أو لما امتاز به من مزايا جمعت حوله الناس، فيدخل الناس فيه أفواجًا خاضعين ومنفذين، ثم يتسللون إليه مبدلين أو مصلحين أو مطورين، ويتعاقب التغيير والتطوير، ويسير ذلك كله تحت اسم المذهب نفسه بدفع من بقايا ماله من قداسة في القلوب وهيبة في النفوس.

ولكن أفإن تم ذلك بالمذاهب التي مات أصحابها وخلت الدار من بعدهم لوراثها، أفيكون دين الله كذلك؟. إنه لتصور خاطىء وخطير!.

ولكن أين هو مكان الخطأ في هذا التصور؟. ومن أين يبدأ الطريق للتخلص منه؟

ليس الإسلام مجموعة أحكام في كتاب

إن مكان الخطأ عند هؤلاء الناس، أنهم إنما يستجلون هوية الإسلام في النظر إلى مجموعة قيمه وأحكامه مفصولة عن كلا طرفي الأصل الذي انبثقت منه والكائن الذي اتجهت إليه!.

إنهم يحاولون أن يفهموا الإسلام مجموعة مبادئ وأحكام في كتاب!، ولكن ما هو مصدر هذه

المبادئ؟ ومن هو الذي صاغها وأخرجها وألزم الناس بها؟ ثم من هو هذا الإنسان الذي أخرج هذا الدين من أجله، وما هي علاقته الحقيقية بمالك هذا الدين والتنظيم؟. هذا ما لا يتعبون أنفسهم بأي تأمل صادق فيه، فلا هم يطيلون التأمل والفكر في الرب العظيم الذي هو مصدر هذا الدين، ولا هم يدققون النظر في الذات الإنسانية التي جاء من أجلها هذا القانون كله!.

وأي قيمة لمجموعة من المبادئ التي تتعلق بالأخلاق والتشريع، بعد أن تبتر من كلا هذين الطرفين الخطيرين؟، وأي ضمانة هذه التي ستحميها من التبديل والتغيير والاعتساف الكيفي في يد الأهواء والشهوات المختلفة؟؛ بل أيّ فرق يبقى بينها وبين أي مجموعة أخرى من النظم والأحكام؟.

لا إسلام بدون معرفة صحيحة لله وعبودية صادقة له

إن الإسلام حقيقة كاملة تبدأ بالمعرفة الصحيحة لله، وتنتهي بالعبودية الصادقة لله، وإنما تنهض بنيته التشريعية قويةً باسقةً ضمن هذين الطرفين، فمن دونهما لا يمكن أن ينهض للإسلام أي نظام خلقي أو تشريعي.

وإذا عرف الإنسان ربّه معرفةً تامةً صحيحةً، عرف من وراء ذلك لا محالة نفسه، واستجلى هويتها، وإذا هو عبد ذليل مملوك لله!. أي إن بين هذين الطرفين تلازمًا بينًا في السلب والإيجاب، فهيهات أن يضلّ إنسان عن هويته الحقيقية وعن معرفة أنه عبد ذليل مملوك لله ثم يكون صادقًا في دعوى إيمانه بالله ومعرفته له.

ألم تر إلى موسى كيف نبَّهه الله إلى عبوديته، من حيث نبهه إلى ذاته ووحدانيته وذلك عندما خاطبه قائلا:

﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ﴾.

بل أو لم تر كيف أمر الله تعالى عباده، إن هم أرادوا الإسلام، أن يسيروا إليه في طريق العبودية التامة له واليقين الصادق بأنهم ليسوا أكثر من سلمة في بضاعة الرحمن، وذلك عندما قال:

﴿قُلۡ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحۡيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٦٢ لَا شَرِيكَ لَهُۥۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرۡتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾.

فقد جعل الإسلام نتيجة يقين الرجل بأنه عبد لله عزّ وجل وثمرة لوضع هذه العبودية موضع التنفيذ في كل أعماله وتصرفاته.

ويخطئ من يظن بأن المسلمين إنما ينهض بهم الإسلام إلى الحياة الكريمة الفاضلة بسبب ما في النظم والأحكام الإسلامية من ضمانات لمصالح الناس بقطع النظر عن أي سبب آخر. أجل! يخطئ

مـن يظـن ذلـك، فـإن الإسـلام إنـما يـضمن تحقيـق مـصالح المـسلمين بـسبب مـا قـد يتـصفون بـه مـن الدينونـة لله تعـالى والعبوديـة ا لـصادقة لـه، ولـيس للأحكـام والـنظم ذاتهـا أي مـدخل إلى ذلـك إذا فـصلتها عـن دافـع الدينونـة لحكـم الله والخـضوع لسلطانه؛ بل ليس قمة أي ضمانة لمن يطبق الإسلام من حيث إنه نظام وقانون فقط أن يجني من ورائه أي سعادة أو خير!. فإن كلًا من أسباب الخير والشر ليست أسبابًا حتميةً في حقيقتها، وإنما هي أسباب جعلية ثبتت لها هذه المزية بجعل الله تعالى وحكمه. والأحكـام الـشرعية بحـد ذاتهـا أقـل مـن أن تخلـق للنـاس سـعادةً أو رشـادًا، ولكنهـا وقـد أمـر الله بهـا، أصـبحت مقياسًـا لـصدق العبوديـة لله والـدينون لحكمـه، وإنـما يـسعد النـاس بانـضوائهم في ديـن الله والـدخول طوعًـا تحـت ذل العبوديـة لله، والانـسياق وراء مشاعر الرهبة من عقابه والرغبة في ثوابه، ومن دون ذلك الانضواء وهذا الشعور لا تعتبر الشرائع الفرعية للإسلام إلا قيودًا تنظيميةً شأنها شأن غيرها من الضوابط والقيود.

وانظر.. كـم تتجلى هذه الحقيقة بـارزةً وقاطعةً في القـانون الإلهي الـذي ختمـت بـه الآيـة التاليـة مـن كلام الله عزّ وجل:

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمۡ لَنُخۡرِجَنَّكُم مِّنۡ أَرۡضِنَآ أَوۡ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَاۖ فَأَوۡحَىٰٓ إِلَيۡهِمۡ رَبُّهُمۡ لَنُهۡلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٣ وَلَنُسۡكِنَنَّكُمُ ٱلۡأَرۡضَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۚ ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ﴾.

إن الخطـاب الإلهـي – كـما تـرى – يخـبر عـن كيفية انتصار الطائفة المؤمنة على خصومهم الـذين طالمـا هـددوهم بـالطرد والإهـلاك وسـاموهم أشـد ألـوان العـذاب، وكيـف ثبـت دعـائم هـذه الطائفـة في الأرض من حيث أهلك الآخرين، ثم يلفت النظر إلى أنـه قـانون إلهـي مـستمر ولـيس حادثـةً جزئيـةً عابرةً، ويعبر عن القانون بهذه الخاتمة: ﴿ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ﴾. وتلك هي حقيقة الإسلام وجوهره، إنه الخشية التي تأخذ بمجامع القلب نابعةً من مصدرين اثنين: الخوف من عظمة الربوبية في ذات الله تعالى وامتلاء المشاعر بصفاته عـز وجـل، والخـوف مـن وعيـده الـذي أبلغـه أمـم الأرض كلهـا عـن طريـق مـا بـث فيهـم مـن الرسـل والأنبيـاء، وإنـما تـأتي النتـائج الأخـرى لاحقـةً بهـذا الخـوف، منوطـةً بهـذا التعظـيم، منـساقةً وراء هـذا الشعور.

وأنّى لـشهوات الأرض كلهـا أن تقـف عندئـذ في الطريق، أو تتغلب على القلب الذي امتلكته مخافة الله، فراح يفيض على المشاعر كلها صبغة العبودية الكاملـة الـصادقة لقيـوم الـسموات والأرض، أو أن تبقـى في الـنفس شـيئًا مـن آثـار عـصبية أو تبعيـة أو

رابطـة تقليـد، أو أن تحمـل شـيئًا مـن نـوازع الفكـر والعقـل على أن تستخف بالغائب المحجوب الذي أخبر الله عنه في سبيل اقتناص الحاضر المرغوب الذي جعله الله فتنةً وامتحانًا.

وهذا ما يفقده المسلمون اليوم

تلك هي حقيقة الإسلام، وتالله إنها الحقيقة التي يفقدها أكثر المسلمين اليوم.

يؤمنون بالله، ولكنه إيمان محبوس في سجن رهيب من رواسب الشهوات والأهواء والركون إلى زهرة هذه الأرض!. إيمان بهذا الشكل لا ريب أن مآله إلى الموت والاختناق، إن لم يكن ذلك أثناء مرحلة من مراحل العمر فإنه كائن لا محالة عند الوقوع في سباق الموت.

مسلمون لله، ولكن على طريقتهم الخاصة، إسلام لا يتجاوز الحلقوم ولا ينهض على أيّ ساق من استشعار معنى العبودية لله عز وجل!، مسلمون ويجلسون مع الله على مائدة مستديرة يناقشون في نظامه وأحكامه وحلاله وحرامه!، مسلمون ويقول قائلهم: إن كثيرًا من أحكام الشريعة الإسلامية لم تعد صالحةً للتطبيق!، مسلمون ولم تدع الدنيا التي التفت على أفئدتهم واستعمرت مشاعرهم أي مكان صالح فيها للخوف من مقام الله أو الرهبة من وعيده!، مسلمون ولم تدخل أفئدتهم في محراب الخشوع لله يومًا من الأيام، ولا ذاقت أعينهم طعم الدموع من خشية الله أمام تذكرة مذكر أو آية تهديد أو وعيد!.

إسلام بهذا الشكل لا ريب أنه لا يصدّ صاحبه عن أن يقيم من نفسه مقومًا لشرع الله يفصل الصالح منه عن الفاسد!. ويميز الخبيث منه – بزعمه – عن الطيب!، وإسلام بهذا الشكل لا يعدّ في حكم الله إسلامًا؛ لأنه افتقد أهم حقائقه وأركانه، وهو استشعار معنى العبودية له؟ فهل رأيت إسلامًا بغير استسلام، وإيمانًا بالله دون انصباغ بالعبودية له؟.

إن أي تبعية صادقة لأي مذهب من مذاهب الأرض اليوم، يحمل في طياته من الخضوع والاستسلام أضعاف ما يحمله إسلام هؤلاء المسلمين من مظهر التبعية له والانقياد لحكمه.

الإسلام لله أم التبعية للناس؟

سألني أحد هؤلاء المسلمين ذات يوم، (وقد كنت أحدثه عن ضرورة صدق المسلمين مع أنفسهم إن كانوا حقًا مسلمين): افرض أننا طبقنا الإسلام منذ هذا اليوم فمتى يمكن أن نستعيد بناءً على ذلك أرضنا السليبة ونبني لأنفسنا حياةً رخيةً تعتقنا من هذا التخلف وتلحقنا بالأمم الراقية في الأرض؟.

قلت له: إن أصغر إنسان يعتز بالتبعية الماركسية – مثلًا – قد يلقى ألوانا من الضيم في

سبيل تبعيته، ويرى مسافة البعد تزداد كل يوم بينه وبين أحلام الشيوعية المطلقة، ومع ذلك فهو لا يسمح لفكره أن يعيش مع هذا السؤال لحظةً واحدةً!، وهو إنما يتبع إنسانًا مثله يخطئ ويتعرض لأشكال من الجهالة والطيش والغرور!، أفيكون مثل هذا الإنسان الصغير منطقيًا مع نفسه ومع الآخرين تجاه هذه التبعية المستسلمة المؤمنة الراضية، ثم لا يكون المسلم المتبع لمنهج السماوات والأرض منطقيًا مع نفسه إن هو صدق مثل ذلك التصديق واستسلم مثل ذلك الاستسلام؟!!.

وقلت له: أفبينك وبين الله عقد على أن تنفذ له شرعه فيبادر إلى تنفيذ هواك ويسرع في تحقيق رضاك، فأنت تستوثق من موقفه معك، حتى إذا لم تطمئن إليه أعرضت عنه قبل أن يعرض عنك!!.

إن كنت على يقين أن شأنك مع الله إنما هو شأن أصحاب المصالح المتبادلة، وأنك تملك من وجودك تجاهه ما يوقفك منه موقف الند للند: تعرض إذا شئت، وتقبل إذا انشرحت، وتقاضيه في حقك إذا لم يكافيك – فأرني الثبات على موقفك هذا عندما تتضاءل ذاويًا عند سياق الموت، وأشعرني إذ ذاك بحريتك التي تملكها، ودلني على عالمك العظيم الذي ستنطلق إليه معرضًا عن الله الذي لم يحقق لك شرطك فلم توف له شرطه!!.

أما أنا فقد عشت إلى اليوم، وأنا أقلب العين في الدنيا التي من حولي، بكل ما تموج به من الصور والأشكال والعلوم والأفكار، فما أبصرت في ذلك كله إلا شيئًا واحدًا يظل ماثلًا أمام عيني، يلاحقني بشكله الرهيب في البكور والآصال والليل والنهار: فلا ثقيلًا يطوقني بآصار العبودية لله عز وجل، لم يدع لي من سبيل إلى أي مفر أو ملاذ، إن جحده لساني لم ينج منه كياني، وإن تناسيته في ذاتي ذكرني به الملكوت الذي من حولي والمصير الذي يرقب دقائق أنفاسي!.

* * *

ادفن نفسك في رمال الغرور، أو العصبية، أو النسيان، أو التجاهل ما طاب لك الدفن، فإنما أنت واقف على أرض العبودية لله، لن تحيد عنها ولن تطير فوقها. ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا﴾.

فأسلم وجهك لله، وأخضع القلب راضيًا لسلطانه وحكمه، وكن عبدًا له بالسلوك والاختيار كما قد خلقك عبدًا له بالقسر والإجبار. واقطع العمر سعيًا وراء تثبيت حكمه في الأرض فذلك هو حق الله عليك ما دمت سائرًا في رحلة هذه الحياة.

==========

(١) نحن لا نضع في حسابنا، في هذا المقام، أولئك الذين طاب لهم أن يرتدوا عن الإسلام جملةً، وأن يجحدوا به اسمًا ومسمًّى؛ إذ أن أمر هؤلاء لا يخضع فيما نحسب لأي لون من ألوان المعالجة الفكرية والنقاش المنطقي.

بدء الوحي

بقلم: الدكتور/ علي عبد المنعم عبد الحميد

عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها أنها قالت:

«أول ما بدىء به رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، ثم حبب إليه الخلاء، وكان يخلو بغار حراء فيتحنث فيه، وهو «التعبد» الليالي ذوات العدد قبل أن ينزع إلى أهله ويتزود لذلك، ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها، حتى جاءه الحق وهو في غار حراء، فجاءه الملك فقال: اقرأ، فقلت: ما أنا بقارىء، قال: فأخذني فغطّني حتى بلغ منى الجهد، ثم أرسلني، فقال: اقرأ فقلت ما أنا بقارىء، فأخذني فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني فقال: اقرأ: فقلت: ما أنا بقارىء، فأخذني فغطّني الثالثة، ثم أرسلني، فقال: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ٢ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ﴾ فرجع بها رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ يرجف فؤاده، فدخل على خديجة بنت خويلد، فقال: زمّلوني، زمّلوني. فزمّلوه حتى ذهب عنه الروع، فقال لخديجة وأخبرها الخبر: لقد خشيت على نفسي، فقالت له خديجة: كلا، والله ما يخزيك الله أبدًا، إنك لتصل الرحم، وتحمل الكل، وتكسب المعدوم، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق. فانطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى ابن عم خديجة، وكان امرأ تنصر في الجاهلية، وكان يكتب الكتاب العبراني، فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب، وكان شيخًا كبيرًا قد عمي، فقالت له خديجة: يا ابن عم، اسمع من ابن أخيك، فقال له ورقة: يا ابن أخي ماذا ترى؟ فأخبره رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ خبر ما رأى. فقال له ورقة: هذا الناموس الذي نزل الله على موسى، يا ليتني فيها جذعًا، ليتني أكون حيًا إذ يخرجك قومك، فقال

رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أو مخرجي هم؟ قال: نعم، لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودي، وإن يدركني يومك أنصرك نصرًا مؤزرًا، ثم لم يلبث ورقة أن توفي، وفتر الوحي» رواه البخاري.

الحديث عن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا يمل؛ فالذين اصطفاهم الله جلت قدرته لحمل رسالاته إلى البشر هم القمة العليا في الإنسانية، لا يدرك مداهم، ولا يبلغ شأوهم، ولا تنال بالاكتساب درجاتهم، فهم أساة القلوب، و هداة النفوس، وقادة الخير، ودعاة الفضل، ودعامة كل كمال، لهم القدح المعلى في زيادة السعادة، منشودة الآدميين وضالتهم، تلك السعادة التي يريدها الله تبارك وتعالى لخلقه وهو أعلم بمكامنها ومدارجها، وسيدنا رسول الله عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام في القمة من صفوة الرسل، هو خاتمهم، وشريعته سيدة شرائعهم، جمعت أفضل ما جاءوا به من عند ربهم، و قفت على آثارهم بما أراد الله أن يكون كفيلًا بحاجة الناس في معاشهم ومعادهم، وكلما ارتفع قدر الشيء كلما غلا ثمنه وعز مطلبه، وبعد مثاله، والسائرون في السفح تلتوي رقابهم ليروا القمة وتعيا بهم أقدامهم فلا يصعدوا إليها، فيحاولون النيل منها بذمها، وينسجون القصص ويشبعون الخيال في الحديث المسيء إلى ما اشتملت عليه، وما أكنته مما لم يدركوه، ومقام النبوة مقام له سموته وأسراره وقداسته، حاول كثيرون ممن لم يحترموا عقولهم، ولم يضعوا أنفسهم في مكانها اللائق أن ينالوا من ذلك العلم الأشم فوهنوا وضعفوا ووقعوا صرعى حيث هم، وكان مما أوردوا شبهًا واهيةً حول الوحي والرسالة، ولا أطيل الوقوف مع هؤلاء المغرضين هنا، وإنما أسوق حديثًا يصف واقعًا من وقائع ما كان مع رسول الله ﷺ وما حدث له، يرى القارىء صورةً لذلك المختار لحمل أضخم رسالة وأقوى دعوة متحملًا أعنت المعارضات ومقابلًا قحة الحاقدين بنور يبهر وضياء لا يقهر، وقد تمثل في سلوكه قبل الرسالة الجلال كله، والفضل جميعه، فنعت الصادق الأمين من الأقربين والأبعدين، من الأعداء والأصدقاء، ولما ضاق بالبيئة العمياء عن الهدى ذرعًا تحنث في الغار وتعبد، وهجر رواد الأصنام، واعتزل مجالهم وخلا بروحه وسما بنفسه وبعد عن مدارج القوم وعاف مسالكهم، وكان هذا إرهاصًا بما سيكون له من شأن، وما سيحمله من هدى ورحمة للعالمين،

وصقلًا ربانيًا لتلك النفس الأبية الطاهرة لتكون على مستوى خاص يريده رب العالمين، وبارىء الكون، فربطه بجلاله في يقظته ومنامه فيقظته عليه أفضل الصلاة والسلام تأمل وتدبر لهذا الكون وبحث عن أسراره، وفي منامه يمد له خيط النور الذي سيقوى ويبدد الظلام، ويأتي على ديجور هذه المخلوقات الهائمة على غير رشد وليأخذ بيدها إلى حيث ربها وبارئها إلى دار تزخر مجتمعاتها بالتراحم والسلام، وتتقى زيف أم دفر وضلالها، وفي هذا المقام لن أعيي القارئ بإيراد شبه وتفنيدها؛ ولكن سامر به في رحاب هذا الحدث الضخم المتصل بسيد الرسل والمشتمل على ما أعيا جهد أرباب الفكر، وما لو سلكوه طريقًا هاديًا، ولو اتخذوه إمامًا ورائدًا وعضوا عليه بالنواجذ لكانوا كما أوضح محكم التنزيل خير مصادر الخير التي أخرجت للعالمين.

في هذا الكلم الطيب الذي قصته أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها وعن قريناتها شرح وإيضاح للطريق الذى سلكته دعوة الله إلى رسول الله أن يحمل ما حمل وأن يبلغ ما كلف بتبليغه، وكيف بادهه الوحي، وأن رؤيا الأنبياء وحي والوحي إعلام من اصطفاهم الله من عباده بكل ما أراد إطلاعهم عليه بطريقة خاصة اتخذت أشكالًا متعددةً كلها بعيدة عن إدراك الانسان لو ترك ونفسه، وقد كان الوحي إلى رسول الله ﷺ مبتدأ في المنام كما تحدث هنا أم المؤمنين، ثم تنوع كما صوره رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بنفسه حين أجاب سائله كيف يأتيك الوحي فقال: «أحيانًا يأتيني مثل صلصلة الجرس وهو أشده عليّ فيفصم عني وقد وعيت عنه ما قال، وأحيانًا يتمثل لي الملك رجلًا فيكلمني فأعي ما يقول، وفي النص الذي نحن بصدده هنا أن رسول الله عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام فوجىء على غير انتظار بمن يدعوه إلى شيء لا يحسنه ولم يلم به وهو القراءة، ويناديه من حيث لا يتوقع نداءً مؤكدًا عليه أن يقرأ، ويقرأ فيرسم بذلك خطة المستقبل، وأنه لا حياة بلا علم و علم بدون قراءة وتعلم، وأن أول معلمي هذه الأمة الأمية هو أعظم خلق الله قدرة على تلك الأستاذية الفذة في بابها العجيبة في توجيهها، الغريبة على الناس في بدايتها ومنتهاها. وحين يذكر سيدنا رسول الله حقيقةً واقعةً لمناديه السماوي وأنه لا يدري ما القراءة يجيبه: اقرأ باسم ربك، فأنت لا تقرأ بقوتك ولا بمعرفتك؛ لكن بحول ربك، ومعونته

فهو يعلمك كما خلقك، وسيعلم أمتك فتخط بالقلم بعد أن كانت أمة أمية. ويعيد الرسول جوابه بنفي القراءة وأنه لا يعرفها ويتكرر عليه الأمر بها وهنا يضمه مناديه بصورة لا يعلمها إلا الله ولا يدري كنهها إلا موجدها، ويغط الرسول صاحبه، «والغط هو العصر الشديد والكبس»، ويبلغ هذا الفعل من رسول الله الجهد، ورجع إلى سكنه وعبة سره، والسيدة الأولى في الاسلام خديجة بنت خويلد ورجف فؤاده يضطرب اضطرابًا شديدًا من هول ما رأى وما حدث له طالبًا من أفضل النساء وأعزهم وأقربهم إلى قلبه وأحناهم على ولده رضي الله عنها وعن بنيها وبناتها أن تزمله وتدثره وقد أصابته الحمى فارتعش البدن، واضطرب الفؤاد، وذهبت نفسه الشريفة شعاعًا، وجالت به التأملات كل مجال وهو لم يدر بعد أن هذه مقدمة رسالة، ومبدأ وحي السماء، وأول خطوة في رحلة شاقة مضنية مع البشر العتاة الذين لا يرون الحق حقًا ولا يدركون من حقائق وجودهم شيئًا، وهنا في هذا الموقف العصيب، وبعد دوي الحادث الرهيب وبين ذراعي السيدة المصطفاة زوجه له، تلكم العاقلة الأريبة، والفهمة اللبيبة، التي أدركت - سابقًا - بثاقب فكرها وذكائها وقوة بصيرتها أن هذا الفتى محمدًا ليس كالفتيان، ولا هو من نماذج درجت أمام عينيها دهرًا طويلًا، وإنما هو من له شأن آخر لكنها لا تدري تمامًا ما هو ذلك الشأن فاختارته زوجًا، على بعد بينهما في الثروة والمال، ومفارقة في السن والحياة، واقترنت به رغم مجافاة ما فعلت لما عليه بنات جنسها في كل زمان، وقبل هو واستجاب لداعيها وعدها نعمةً أنعمها الله عليه، وقد كانت هذه هي خديجة بنت خويلد تضرب المثل الأعلى للزوجة ذي القلب الكبير، والإدراك النادر الشبيه، المنقطع النظير، الزوجة التي تعرف زوجها من خلال دراستها الفاحصة لسلوكه، والتي تقيم حركاته وسكناته وتزنها بسمو أدركته منه هي وحدها، عالمةً أنها لا تساكن قرشيًا اعتادته دروب مكة وشعابها ولا فتى يمر عابرًا بحياة البداوة مجتازًا قفارها ثم يمضي إلى حيث ينسى، وإنما لمحت بمدركة نافذة تتخطى الظواهر إلى اللباب، وتغوص في الأعماق على الدر النادر، والملاليء الغالية، تلمح هذا بيسر ودون عناء في إجابتها لسيدها حين أبدى لها القلق الذي يساوره، والألم الذي يعتصر قلبه، والخوف من نهاية غير مرتضاة والوصول إلى نتيجة

ليست هي مبتغاه من تحته الليالي ذوات - العدد وحيدًا إلا من الأنس بربه، وفريدًا إلا من عناية عالم السر وأخفى، مقدمات أوردتها تلك السيدة الحبيبة إلى قلوب رواد خير الدنيا وطلاب سعادة الآخرة، وبنت عليها نتائج ما كذبت؛ لأنها لم تحمل خسة القضايا الكاذبة، وإنما كانت موجهةً دائمًا وكليةً دائمًا، وتأمل أخي القارئ العزيز قولها وحسن إيرادها لما أوردت فهي تقول متعجبةً من سيدها حين يخاف على نفسه ويخشى عليها السوء من احتمالاتٍ أوردها الناظرون في هذا الحديث وأوصلوها إلى اثنى عشر صنفًا من بينها خشية الجنون والمرض، أو خشية الإخفاق فيما كان يرومه ولا يستطيع أن يعبر عنه أو يقر به فهمًا إلى نفسه فضلًا عن غيره، تعجب السيدة خديجة رضي الله عنها الجديرة بحب سيد المرسلين وحفظه لذكراها حتى بعد التحاقها بالرفيق الأعلى وتسوق عليها رضوان الله تلك الكلمات الحلوة الجميلة الغنية حتى في ألفاظها بكل ما تدل عليه وما اتخذت منه علمها: كلا يا سيدي! لا وألف لا يا سيدي أعيذك من تلك الفكر، فأنت الذي لا يخزيك الله أبدًا فلك فعال ليس في نتائجها ما تتصوره أو ما تتوقعه، فأنت فأنت الذي يحمل الكل (بفتح الكاف) ويصل الرحم، ويكسب المعدوم، ويقري الضيف، ويعين على نوائب الحق، وتلك لعمر الحق خلال ما اتصف بها إنسان وأضاعه الله أو تخلت عنه عناية ربه، وإنما هي دواعي الحفظ والرعاية من رب العالمين، وسمو القدر والمكانة بين الناس أجمعين.

وهنا نمسك القلم قليلًا فنور سيدنا رسول الله يغشى الأفئدة فيضيئها ويغشى الضلالة ويبددها، وحديث السيدة الحبيبة إلى رسول الله وإلى قلوب المؤمنين يحتاج إلى كثير من الوقوف في رحابه، ومزيد من الطرق لبابه، زيادة على عظمة ما كان منها بعد ذلك مع سيد المرسلين، ولهفتها على تطمينه وإعادة السكينة إلى قلبه وإني لأراها أشد حرصًا على معرفة نتيجة ما حدث من أي إنسان عاصرها أو جاء بعدها فذهبت رضي الله عنها مثلًا عزيز المنال في كمال العشيرة وجمال السكن وعظمة العقل الإنساني حين ينفتح وحين يؤمن بحقه في الكرامة، ومكانته فى الحياة الحرة العزيزة فإلى لقاء قريب مع سيدة المؤمنين وسيدها رسول الله إلى الناس أجمعين. والحديث موصول إن أذن رب كل شيء سبحانه.

* * *

الإداري المسلم في هدي سلوك الرسول ﷺ وإدارته لشؤون الرعية

بقلم: الدكتور/ أحمد شوقي الفنجري

يعتبر حسن الإدارة من أخطر وأهم العوامل في نجاح الأمم وتطورها في عصرنا الحاضر، فبغير الإدارة الرشيدة لا يمكن أن تنجح مؤسسة حكومية أو شركة تجارية، أو مصنع كبير أو صغير... ويسوء الإنتاج على مستوى الدولة والأفراد، وتعم الفوضى ويظهر الفساد والتقصير في كل مجالات الحياة.

ومن أهم أسباب تخلّف الدول الإسلامية في عصرنا الحاضر، قلة الإداريين الأكفاء... فكثير من الإداريين حين يتولى منصبًا رئاسيًا يتغير تغيرًا كليًا بين يوم وليلة، وأول شيء يفعله أن يعبس في وجوه من كانوا زملاءه بالأمس ويتكلف معهم في الحديث، ثم يبدأ يضع بينه وبينهم حاجبًا وحاجزًا... فلا يقابلونه إلا بصعوبة ومراسيم طويلة... وإذا قابلوه لم يأذن لهم بمحاورته أو إبداء رأيهم في سير العمل... وقد لا يكون ذلك من باب التعالي والكبرياء؛ ولكنه يتصور أن من أصول الإدارة ألا يتباسط الرئيس مع مرؤوسيه حتى لا يفقد هيبته بينهم وحتى يضمن طاعتهم لأوامره.

وهذا تفكير ساذج... وفهم خاطئ لمعنى الإدارة.

فلا هو من حسن الإدارة ولا هو من خلق الإسلام.

لقد جاء الإسلام بتعاليم في الإدارة... ابتداءً من إدارة البيت والأسرة مرورًا بإدارة البنوك والمصانع وانتهاءً بالشركات... عطفًا على إدارة الدول بحيث لو اتبعناها لأصبحنا بحق خير أمة أخرجت للناس... ولنا في ذلك خير قدوة ومثل في رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فلم يعرف التاريخ كله رجلًا أوتي من الحكمة وحسن الإدارة مثل الرسول في إدارته لشؤون المدينة وحله مشكلاتها:

١- وأول مثل يضربه الإسلام في حسن الإدارة أن الإداري الناجح يجعل من نفسه القدوة الصالحة لغيره، فإذا طالبهم بالالتزام بمواعيد العمل كان هو أول من يحضر وآخر من يغادر... وإذا

وضع خطة عمل ابتدأ بنفسه في تطبيقها.

وهذا هو رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عندما أمر أصحابه ببناء أول مسجد له في المدينة ابتدأ بنفسه فحمل الحجارة على كتفه الشريفة فجاء الصحابة يرجونه أن يستريح وهم يعملون... وقالوا له: «نحن نكفيك ذلك يا رسول الله»، ولكنه ﷺ يأبى إلا أن يعمل مثلهم ليكون قدوة لهم...

وفي غزوة الخندق قسم الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ العمل في حفر الخندق على أهل المدينة جميعًا... ولكنه كان أول من تناول المعول وضرب به الصخر، وكان كلما واجه المسلمون صخرةً قاسيةً لا تشقها المعاول يستعينون به فيضربها بمعوله ويعينهم عليها... وهذا كله جعلهم يتغنون:

لئن قعدنا والنبي يعمل

لذلك منَّا العمل المضلّل

٢- ومن صفات الإداري الناجح أن علاقته بمرؤوسيه، تقوم على المحبة والاحترام المتبادل أكثر مما تقوم على الخوف من الجزاء والعقاب:

فبعض الرؤساء ما أن يتولى المسؤولية حتى يبدأ عهده بخطابات الإنذار والوعيد والتهديد للمخالفين والمقصرين، ويعممها على الجميع المحسن والمسيء، وهذا أسلوب جارح وأحمق ونتائجه عكسية، فالإنسان بطبيعته يحب الخير ويأسره المعروف والمعاملة الكريمة، وإذا صدر إليه أمر بأسلوب كريم اندفع إلى التفاني في أدائه وإتقان العمل أكثر مما يفعل إذا كان الدافع هو الخوف من الجزاء والعقاب... وكان الأولى به أن يبدأ عهده بخطابات المحبة والإكرام والحض على التعاون والإنتاج قبل خطابات التهديد والوعيد، وقد كان أصحاب رسول الله ﷺ يتفانون في طاعته والاستجابة لأوامره ويتفانون في إتقان العمل إرضاءً لله ومحبةً للرسول ﷺ، وهذا كله لا يمنع وجود العقاب والجزاء للمسيء، ولكن العلاقة الرئيسة يجب أن تقوم على الحب المتبادل والاحترام للجميع، وفي تلك يقول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ «خيار أئمتكم الذين تحبونهم، ويحبونكم، وتصلون عليهم، ويصلون عليكم، وشرار أئمتكم الذين تبغضونهم، ويبغضونكم، وتلعنونهم ويلعنونكم» رواه مسلم.

٣- وبعض الإداريين والرؤساء يحب المظاهر الكاذبة، ويرضي غروره أن يرى مرؤسيه يقفون له إذا ظهر، وينحنون له إذا تكلم، وإذا مشى يسيرون خلفه في خنوع... وهذا نوع من الكبرياء الساذج الذي يقول عنه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر» رواه

ابـن حنبـل، ويقـول أيـضًا: «مـن أحـبّ أن يتمثـل الرجال له قيامًا، فليتبوأ مقعده من النار» رواه أحمد.

لقـد كانـت لرسـول الله ﷺ هيبـة في قلـوب الناس لم يُر لأحد مثلها... ومع ذلك فقد كان يأبى أن يقف له الناس أو ينحنوا له... وكان يقول لهم: «لا تعظمـوني كـما يعظـم الأعـاجم ملـوكهم» رواه مسلم.

ورأى عمـر بـن الخطـاب رجـلًا مـن زعـماء العشائر يسير في الطريق وخلفه أتباع له يعظمونه أمام الناس فعلاه عمر بدرته وقال له: «إياك أن تعود لذلك فإنه فتنة للمتبوع وذلة للتابع».

ودخل على عمر بن عبد العزيز رجل وأراد أن يقبل يده فغضب عمر وقال له: «قبلة اليد من المسلم ذلة ومن الذمي خدعة ولا نحب أن نذل أحدًا... أو يخدعنا أحد».

لقد حرم الإسلام هذه المظاهر الكاذبة؛ لأن فيها ذلة للمرؤوسين، والإسلام يريد لأبنائه الكرامة وعزة النفس... كما أن هذه المظاهر فتنة للرئيس ولا يطلبها إلا الساذج الأجوف الذي لا يستطيع أن يسيّر الأمور بعمله وحسن إدارته وبمحبة الناس له.

٤- والإداري الناجح يعتمد في إدارته على الشورى، ويقبل النصيحة والرأي من مرؤوسيه، فالإنسان مهما بلغ من العلم ومهما علا مركزه فهو بحاجة إلى رأي الآخرين وخبرتهم، ورسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «من استشار لم يعدم رشدًا، ومن ترك المشورة لم يعدم غيًا» رواه مسلم عن ابن عباس، وقد كان الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو زعيم الأمة وقائدها من أكثر الناس مشورةً لأصحابه في أمور الدنيا عملًا بقوله تعالى: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ آل عمران:١٥٩، وكان يقول لأصحابه: «من أراد أمرًا فشاور فيه امرأً مسلمًا وفقه الله لأرشد أمره» رواه الطبراني.

وبديهي أن المرؤوسين والموظفين إذا أحسُّوا أنهم شركاء في الرأي وفي خطة العمل شعروا بالمسؤولية وعملوا على نجاحها، وأقبلوا بإخلاص وحماس على تنفيذها(٥)، والإداري الناجح لا يجعل بينه وبين مرؤوسيه حجابًا أو مانعًا؛ بل عليه أن يستقبل الكبير والصغير، وأن يزورهم في مقر عملهم، وأن يستمع إلى شكاواهم ومشكلاتهم... فبهذه الوسيلة لا يخفى عليه شيء من دقائق العمل وأسراره، وتصله أخبار المسيء والمنحرف قبل أن يستفحل أمرها، كما يعرف الأخطاء وهي في مهدها، وفي ذلك يقول رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «من ولي شيئًا من أمور المسلمين ثم حجب عليه حجب الله

عنه يوم القيامة» رواه أحمد وأبوداود.

ومـن هنـا ابتـدع فقهـاء المـسلمين اصـطلاحًا سموه «سهولة الحجاب» ويقول أحد فقهاء الشريعة في تفسير هذا المبدأ:

«لا شيء أضيع للعمل من شدة الحجاب على الرئيس... ولا أهيب للمسؤولين والعمال من سهولة الحجاب؛ لأن المسؤولين إذا وثقوا بسهولة الحجاب على الرئيس أحجموا عن الظلم والانحراف».

ومـن الحكـم البالغـة في هـذا المجـال وصـية الخليفة أبي بكر الصديق إلى أحد قادته؛ إذ يقول له: «واسـمر بـين أصـحابك تأتـك الأخبـار وتعلـم الأسرار»، أي إن جلوس القائد مع ضباطه وجنوده وتسامره معهم يفتح له باب العلم والمعرفة بأخبار الجيش وأسراره فلا تعش في برج عاجي أو في عزلة عن الأحداث.

٦- وبعـض الإداريـين يخـاف مـن المـوظفين الأكفاء أو ذوي الشخصية القوية ولايحاول الاستعانة بهم خوفًا من معارضتهم له، وفي الوقت نفسه يفضل أن يُقرّب منه المداهنين والمتملقين الذين يوافقونه في الرأي، وهذا طبعًا يؤدي إلى ضعف الإنتاج وتراكم الأخطاء، فهؤلاء المنافقون هم الذين يسميهم الرسول ﷺ «بطانة السوء» ويأمر أصحابه قائلاً: «احثوا في أفـواه المـدَّاحين الـتراب» رواه ابـن ماجـه، ويـصف رسول الله ﷺ المستشار المؤتمن فيقول: «إذا أراد الله بالأمير خيرًا جعل له وزير صدق، إذا تذكّر أعانه، وإن نـسي ذكّـره، وإذا أراد الله بـالأمير شرًا جعـل لـه وزيـر سـوء، إذا تـذكّر لم يعنـه، وإذا نـسي لم يـذكّره» رواه أبوداود في الأمانة.

وآفة بطانة السوء هذه أنها تُضِل صاحبها أو أميرها بكثرة مدحه على الخطأ والصواب مما يصيبه بالغرور ويعمي بصيرته حتى يتصور أنه معصوم من الخطأ، وبذلك يزداد خطأً وضلالًا.

٧- والإداري الناجح يضع الرجل المناسب في المكان المناسب: فلا يرفع إلى المناصب الكبيرة أحدًا لقرابة أو محسوبية أو علاقة شخصية، ولكنه يراعي مصلحة العمل أولًا... ويراعي ربه وضميره في اختيار مسؤوليه لخدمة الناس، فرسول الله ﷺ يقول: «من ولي من أمور الناس شيئًا فآثر عليهم أحدًا محاباةً فعليه لعنة الله لا يقبل الله منه صرفًا ولا عدلًا حتى يدخله جهنم».

ويقول أيضًا: «من ولي من أمر المسلمين شيئًا فـولى رجـلًا لمـودة أو قـرابـة وهـو يعلـم أن في المسلمين من هو خير منه فقد خان الله ورسوله» رواه أبوداود.

٨- والإداري الناجح يراقب أعمال موظفيه بنفسه، وحبذا لو يندس بين المراجعين ليرى بنفسه إنجاز العمل، ويسمع شكواهم، وقد كان الخليفة الراشد عمر بن الخطاب يفعل ذلك بنفسه، وكان يقول: «أيُّما عامل لي ظلم أحدًا وبلغتني مظلمته فلم أعرها اهتمامًا فأنا ظلمته»، يقول أيضًا لأصحابه: «أرأيتم إذ استعملت عليكم خير من عملت ثم أمرته بالعدل أكنت قضيت ما علي» قالوا: نعم. قال: «لا حتى أنظر عمله أعمل بما أمرته أم لا؟».

٩- والإداري الناجح لا يفرط في العقاب عن الأخطاء...

كما أنه لا يفرِّط في التسامح مع المخطئ والمهمل، فبعض الإداريين يتصور أنه إذا اتبع القسوة أو المبالغة في العقاب لأهون الأسباب، كان ذلك رادعًا وعبرةً لكل العاملين معه، حتى لا يتهاونوا في العمل... وهذه سياسة خاطئة، فعلاوةً على ما لها من الظلم فهي تنشربين العاملين جو الرهبة والخوف من العمل بما يعرقل الأعمال، وخير وسيلة هي التوسط بين الشدة والتسامح، بحيث يصبح الجزاء من جنس العمل، فالله تعالى يقول: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ﴾ النحل ١٢٦، ورسول الله ﷺ يقول: «إن شر الرعاء الحطمة» رواه مسلم وابن حنبل، ومعناه أن شر الناس من تولى أمر قوم فيعمل على تحطيمهم لأقل هفوة.

١٠- والإداري الناجح يدافع عن حقوق مرؤوسيه ويحب لهم الخير والزيادة في الراتب والرزق تمامًا كما يحب لنفسه، فلا يختص نفسه بخير لا يعمهم جميعًا ويحرص على مكافأة المحسن والمجتهد، وعلى تشجيعهم لمزيد من الإنتاج ويتعاطف معهم في المحنة والمصيبة، ويدافع عنهم إزاء مشكلات العمل، وفي ذلك يقول رسول الله ﷺ: «ما من رجل يولى من أمر الناس شيئًا لم يحفظهم بما يحفظ به نفسه إلا لم يجد رائحة الجنة» رواه الطبراني.

١١- والإداري الناجح دقيق في التنظيم والتخطيط، يضع الخطط للمستقبل القريب والبعيد ويتابع تنفيذها في حزم ومثابرة، ولا يترك الأمور للفوضى أو المصادفة، وقد كان رسول الله ﷺ يضع بنفسه خطط المستقبل، ويشرف على تنفيذها، وكان إذا أراد غزوة، أعد لها قبلها بأشهر... ومن روعة تخطيطه وتصميمه ما فعله في غزوة الخندق... فقد علم أن جيش المشركين سوف يصل بعد شهر، وأنه لابد أن ينجز الخندق في هذه

المدة القصيرة، فأخذ يقيس طول الخندق بالذراع وعرضه وعمقه، وأخذ يحسب مقدرة كل إنسان على الحفر... وقدر بذلك عدد الأيدي اللازمة للحفر في هذه المدة الوجيزة ليلًا ونهارًا... وكلف كل أسرة بمنطقة معينة. وبهذه الدقة المتناهية كان الخندق كله قد تم حفره قبل وصول جيش المشركين، فانبهروا من المفاجأة. وقال أبو سفيان: «هذا ليس من فعل العرب»...

١٢- من أهم صفات الإداري الناجح الحزم والعزم وعدم التردد في الحق أو اللين فيه... وقد جاء إلى الرسول صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أبو ذر الغفاري وقال له: «يارسول الله ولِّني إحدى الإمارات مما أفاء الله على المسلمين»، فربت الرسول ﷺ على كتفه وقال له: «يا أبا ذر... إنك رجل ضعيف. وإني أحب لك ما أحب لنفسي لا تأمرن على اثنين ولا تولين مال يتيم» رواه أبوداود.

١٣- الإداري الناجح مبدع خلّاق، يفكر ليل نهار في خطط جديدة، وحلول مبتكرة للمشكلات ولا يعترف بالعجز أمام الروتين... ولقد كان الرسول صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يفاجئ الناس كل يوم بحلول مبتكرة في السلم والحرب... فهو أول من أدخل المنجنيق إلى الجزيرة العربية واستعمله في حصار الطائف... وأول من استعمل الخندق لصد الحصار، وأول من استعمل العنزة وهي سلاح حبشي رآه مع أحد العائدين من هجرة الحبشة، وفي السلم كانت له حلول خلاقة مبتكرة لمشكلات الاقتصاد وغيرها مما لايتسع المجال لذكره.

كانت هذه هي بعض صفات الإداري الناجح المسلم متخذين من سلوكية رسول الله ﷺ قدوةً في التطبيق، ومن تعاليم الإسلام منهجًا وسبيلًا، ولو اتبع المسلمون هذه التعاليم في عصرنا الحاضر عن فهم صحيح لأصبحنا بحق «خير أمة أخرجت للناس»، وهي تعاليم يجب أن يحفظها كل زعيم دولة أو رئيس حكومة أو مدير شركة أو رئيس عمال؛ وحتى الأب وهو يدير أسرته.

فبهذه التعاليم سوف تعم المحبة والتعاون والثقة المتبادلة بين الحكام والمحكومين... وبين الرؤساء والمرؤوسين... وبين مديري المصانع والشركات... وموظفيهم وعمالهم.

وبهذه الوسيلة وحدها يقبل الجميع على العمل في حماس وإخلاص ويزداد إنتاج المصانع والشركات؛ بل إنتاج الأمة كلها ويعم الرخاء على الجميع.

* * *

شـــذرات

تقديم: الأستاذ/ محمد فائز جميل القاسمي

دعاة على أبواب جهنم

عن حذيفة بن اليمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال:

كان الناس يسألون رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن الخير، وكنتُ أسأله عن الشر مخافة أن يُدركني.

فقلت: يا رسول الله، إنا كنّا في جاهلية وشرٍّ فجاءنا الله بهذا الخير، فهل بعد هذا الخير من شر؟

قال: «نعم».

قلت: وهل بعد ذلك الشر من خير؟

قال: «نعم، وفيه دخن»!!

قلت: وما دخنه؟

قال: «قوم يهدون بغير هدي تعرف منهم وتُنكر».

قلت: فهل بعد ذلك الخير من شر؟

قال: «نعم، دعاة على أبواب جهنم، من أجابهم إليها قذفوه فيها».

قلت: صفهم لنا.

قال: «هم من جلدتنا ويتكلّمون بألسنتنا»!!

قلت: فما تأمرني إن أدركني ذلك؟

قال: «تلزم جماعة المسلمين وإمامهم».

قلت: فإن لم يكن لهم جماعة ولا إمام؟

قال: «فاعتزل تلك الفِرَقَ كلَّها ولو أن تعضَّ بأصل شجرة حتى يدركك الموتُ وأنت على ذلك».

رواه البخاري ومسلم وغيرهما.

عمرو بن عمرو

كان بنو حنظلة من بني تميم قد غزت قوم عمرو بن عمرو بن عدس وعليهم عمرو، فقتله بنو عبس، وكان هذا اليوم يوم أقرن فقال فيه:

كأنَّ السرَايا بينَ قَوٍّ وقارةٍ
عصائِبُ طَير ينْتَحينَ لَمَشْرَب
وقدْ كنْتُ أخشى أنْ أَمُوتَ ولم تَقمْ
قرائِبُ عمرٍو وسْطَ نَوْحٍ مُسلَّب
شَفى النَّفسَ منِّي أَودَنا منْ شِفائِها
تَرَدِّيهمُ منْ حالقٍ مُتصَوِّبِ
تَصيح الرُّدَينيَّاتُ في حَجباتِهم
صياحَ العوالي في الثِّقافِ المثقَّب
كتَائبُ تُزْجى فوْقَ كلِّ كتيبَةٍ
لِوَاءٌ كظلّ الطَّائر المتقلِّب

فصاحة اللسان توجب الإحسان

كان الحسن بن علي جالسًا يومًا، فجاء رجل وسأله شيئًا من الصدقة ولم يكن عنده ما يسد به رمقه، فاستحيا أن يردّه فقال:

ألا أدلك على شيء يحصل لك منه البرُّ والإحسان؟

فقال: ماذا تدلني عليه؟

قال: اذهب إلى الخليفة، فإن ابنته توفيت، وانقطع عليها، وما سمع من أحد تعزيةً، فعزّه بهذه التعزية يحصل لك بها الخير.

فقال: حفظني إياها.

قال: قل له: الحمد لله الذي سترها وأكرمها بجلوسك على قبرها، ولا هتكها وأحرمها بجلوسها على قبرك.

فذهب إلى الخليفة وعزّاه بهذه التعزية.

فلما سمعها ذهب عنه الحزن وأمر له بجائزة.

وقال: بالله عليك أكلامك هذا؟

قال: لا؛ بل كلام الحسن بن علي.

فقال: صدقت، فإنه معدن الكلام الفصيح، وأمر له بجائزة أخرى لصدقه.

أقوال الحكماء والأدباء في الوفاء بالوعد

- من أمثال الحكماء:

حسب المؤمن من مكارم الأخلاق، حفظ العهد والميثاق، ومن حفظ العهد يزكو قليل الودّ منه، ومن نقض العهد يذهب كثير الودّ عنده.

- وقال أبو تمام:

إذا قُلت في شيءٍ نعم فَأَتمَّه
فإنّ «نعم» دين على الحُرّ وَاجِب
وإلا فَقُل لا تسترح وترح بها
لِئَلا يقول النّاس: إنّك كَاذِب

- وقال آخر:

فلا تَعد عدة إلّا وَفَيت بها
ولا تَكُونن خلّافًا لما تعد

شفاعة الحجاج عند عبد الملك بن مروان

كتب الخليفة عبد الملك بن مروان إلى الحجّاج ابن يوسف: أمَّا بعد، إذا ورد إليك كتابي هذا فابعث إليَّ برأس أسلم بن عبد البكري، لما قد بلغني عنه.

فلمَّا ورد الكتاب أحضره الحجاج، فقال أسلم: أعزَّ الله الأمير، أمير المؤمنين الغائب وأنت الحاضر، قال الله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمَۢا بِجَهَـٰلَةٖ فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَـٰدِمِينَ﴾، وما بلغه عني فباطل، فاكتب إليه: إنِّي أَعُول أربعًا وعشرين امرأةً، ما لهن بعد الله كاسبٌ غيري.

فقال الحجاج: ومن لنا بتصديق ذلك؟

قال أسلم: هنَّ بالباب أصلح الله الأمير.

فأمر بإحضارهن، فلما دخلن عليه جعل يسائلهن، فهذه تقول: عمَّته، والأُخرى تقول: خالته، والأُخرى: زوجته، إلى أن انتهى إلى جارية فوق الثمانية ودون العشاريَّة، فقال لها الحجاج: من أنت منه؟

قالت: ابنته أصلح الله الأمير، ثم جثت بين يديه وأنشأن تقول:

أَحَجَّاجُ لَمْ تشهَدْ مَقامَ بناتِهِ
وَعمَّاتِهِ يَنْدُبْنَهُ اللَّيلَ أَجْمَعا
أَحَجَّاجُ كم تَقْتُل بِهِ إن قتلتَهُ
ثمانًا وعَشْرًا واثنتين وَأَرْبَعا
أَحَجَّاجُ مَنْ هذا يقومُ مَقامَهُ
علينا فمهلًا أن تزدنا تَضَعْضُعا
أَحَجَّاجُ إِمَّا أَنْ تجودَ بِنِعْمَةٍ
علينا وَإِمَّا أَن تُقَتِّلْنا مَعا

فما استتَّمت كلامها حتّى أسبل الحجَّاج دمعه من البكاء، وقال: والله لا أَعنت الدَّهر عليكن، فلا زدتُكن تضعضعًا.

فكتب إلى عبد الملك بخبر الرَّجل والجارية، فكتب إليه عبد الملك: إن كان كما ذكرت فأحسن له الصِّلة، وتفقَّد الجارية، وعجِّل بسراحهن، ففعل ما أمره.

بقية إشراقة: المنشورة على ص ٥٦

ويقول ابن كثير في تفسير هذه الآية: «والغرض أن الله تعالى ذمهم على هذا الصنيع و نبههم على خطئهم في حق أنفسهم، حيث كانوا يأمرون بالخير ولا يفعلونه، وليس المراد ذمهم على أمرهم بالبر مع تركهم له؛ بل على تركهم له؛ فإن الأمر بالمعروف معروف، وهو واجب على العالم؛ ولكن الواجب والأولى بالعالم أن يفعله مع أمرهم به، ولا يتخلف عنهم، كما قال شعيب عليه السلام: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُۚ وَمَا تَوْفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود:٨٨]. فكل من الأمر بالمعروف وفعله واجب، لايسقط أحدهما بترك الآخر على أصح قولي العلماء من السلف والخلف. وذهب بعضهم إلى أن مرتكب المعاصي لاينهى غيره عنها، وهذا ضعيف، وأضعف منه تمسكهم بهذه الآية؛ فإنه لا حجة لهم فيها. والصحيح أن العالم يأمر بالمعروف، وإن لم يفعله، وينهى عن المنكر وإن ارتكبه، قال مالك عن ربيعة: سمعت سعيد بن جبير يقول له: لو كان المرء لايأمر بالمعروف ولا ينهى عن المنكر حتى لا يكون فيه شيء ما أمر أحد بمعروف، ولا نهى عن منكر. وقال مالك: من ذا الذي ليس فيه شيء؟ قلت: ولكنه -والحالة هذه- مذموم على ترك الطاعة وفعله المعصية، لعلمه بها ومخالفته على بصيرة؛ فإنه ليس من يعلم كمن لايعلم؛ ولهذا جاءت الأحاديث في الوعيد على ذلك».

وإن أشنع عيب وأقبحه في الداعي حين يعود الدين عنده حرفةً وصناعةً لا عقيدةً ذات قناعة وحرارة نابعة من القلب - أنه يقول مالا يفعل، وينطق بفيه ما ليس في قلبه، ويندب الناس إلى البر والتقوى، وينسى نفسه، ويهملها ولايأخذها به، ولايبالي بتأويل النصوص بما يخدم هوى نفسه، وغرضه المنشود، ولايعدم تأويلات ظاهرها يوافق ظاهر النصوص الشرعية، وإن كانت حقيقتها تعارض حقيقة النصوص على طول الخط وعرضه، فلايقتصر وباله على نفسه؛ بل على الدعوة والرسالة التي يحملها إلى الناس؛ فإنه بسلوكه هذا يورث الشبهة ليس في الداعي وحده، و لكن في الدعوة نفسها، كما يؤدي هذا الصنيع إلى بلبلة أفكار الناس، وزعزعة ثقتهم به وبدعوته؛ إذ يصادفون قولًا أحلى من العسل، وأجمل من سمط اللآلي، ومن القمر ليلة البدر، ومن الشمس في رائعة النهار، ومن منظر الفلك الدائر والكوكب السَّيَّار، وأرق من النسيم، وألين من الديباج، و يرون فعلًا قبيح المنظر كأنه رأس الشيطان، تشمئز منه النفوس، وتمجه العيون. وإن الكلمة التي لم يشفعها سلوك حسن على وفقها تصل إلى السامع

هامدةً ميتةً، مهما كانت رنّانةً متحمسةً طنّانةً، إذا لم تكن مصدرها القلب السليم الذي يؤمن بها، ولم يجسدها صاحبها في حياته واقعًا ملموسًا بالبنان، موافقًا لما ينطق بلسانه. وعلى العكس من ذلك إن الكلمة النابعة من القلب المشفوعة بالعمل والسلوك - وإن فقدت ظاهر الطنين والرنين والبريق واللمعان- فإنها تستمد الحسن و الجمال والروعة من إيمان صاحبه بالله وصلته به، وتنفذ إلى القلب وتفعل فعلها فيه.

إن عالم الدين من حملة المنهج الإلهي الذي لايرضخ لأهواء النفس البشرية، وإنه يريد أن يخرج غيره من الباطل الذي يعيشه وتعوده. والإخراج من المألوف والمعتاد ليست طريقته مفروشة بالورود والأزهار، ولا أمره هين يسير؛ فإنه يشكل اعترافًا من المدعو بأنه كان على باطل وضلال على اختلاف درجاته ومستواه، فلابد من أنه يفتح عينيه على سلوك الداعي: هل يطبق ما يقوله له في واقع حياته؟ فإن كان على ذلك أدرك أنه مخلص في دعوته وتوجيهه، يريد الخير له، وأما إذا خالف سلوكه قولَه، ولم يطبقه على نفسه، كان أحرى أن يعود إلى الباطل الذي كان يستولي على نفسه. فالكلمة المفصولة عن السلوك والعمل أضيع من الأيتام في مأدبة اللئام، وأبعد من فعلها وتأثيرها، ويصور صاحبه مخادعًا غاشًّا لمن يقولها له، ولنفسه على حد سواء.

ونِعم ما قال علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حين دخل عليه رجل وقال له: عظني وأوجز. فقال: توق ما تعيب، وقال أيضًا: «لاتأت ما تعيب، ولاتعب ما تأتي».

وجاء رجل إلى ابن عبّاس رضي الله عنه، فقال: إنّي أريد أن أعظ، فقال: أو بلغت ذلك إن لم تخش أن تفتضح بثلاث آيات من كتاب الله تعالى فافعل. قال: ما هي؟ قال: قول الله تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ﴾، وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾، وقول العبد الصالح شعيب عليه السلام: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ﴾، أحكمت هذه الآيات؟. قال: لا، قال: فابدأ إذًا بنفسك (محاضرات الأدباء ١/٦٧).

وقال بعض الحكماء لتلميذ له: «يا من باطنه منظور الحق، وظاهره منظور الخلق حسن ما شئت لما شئت. وقالوا: ما أقبح بالإنسان أن يقول ما لا يفعل، وما أحسن الفعل ابتداءً قبل القول؛ فإن من مات محمودًا أحسن حالًا ممن عاش مذمومًا. وقال أكثم بن صيفي: فضل القول على الفعل دناءة، وفضل الفعل على القول مكرمة.... وقال بعض الحكماء: لأن يكون لي نصف لسان ونصف وجه على ما فيهما من قبح المنظر وسوء المخبر أحب إلي من أن أكون ذا وجهين، و ذا لسانين، وذا قولين مختلفين (غرر الخصائص الواضحة١/٥٧).

أريد أن يدخل كل الناس الجنة إلا ...

الناظر في أحوال المسلمين اليوم في مشارق الأرض ومغاربها يرى عجبًا أعجب من العجب، أناس يحرصون -حرص الظمآن على الماء- على أن يدخل الناس كلهم الجنة التي أعدها الله تعالى للمتقين، فيأمرونهم بالمعروف، وينهونهم عن المنكر، ويرشدونهم إلى كل ما يقربهم إلى الجنة، ويبعدهم من النار. وهو أمر لاغبار على روعته وجماله وحسنه وبهائه، وهو أمر رغب فيه الشريعة الإسلامية، يقول الله تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ ۗ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَآ أُتْرِفُواْ فِيهِ وَكَانُواْ مُجْرِمِينَ﴾[هود:١١٦].

تجد بعض الناس يخرج من بيته ليلًا أو نهارًا، فلايمر على أحد فلا يهنأ له العيش حتى يعيبه، وينتقص منه، ويحط من شأنه، ويقلل من قيمة ما هو فيه، مما يخالف طبيعته و مزاجه، فيشدد النكير عليه، ويحذره من مغبته في الدنيا والآخرة، وينذره بأن ما هو فيه يؤدي إلى النار،لا إلى الجنة، ويصف له الجنة والنار كأنهما رأي العين، وأن صاحبه إن كان يرغب في الجنة ونعيمها فليرضخ لما يقوله الناصح، وليمتثل أمره، ثم يتظاهر بنصحه له قائلًا: إنما أريد أن تدخل الجنة، ولا أريد منك وراء ذلك جزاءً ولا شكورًا.

تجد مثل هذا المتهافت على الأمر بالمعروف إذا حضر جمعًا من الناس يتلقون -مثلًا- التبرعات لصالح بناء مسجد أو مدرسة أو أي عمل خيري تصدرهم في حثهم على الإنفاق، و الحض على البذل والعطاء، وشرح قيمته وأهميته بما قد لايخطر على قلب بشر، ثم إذا قيل له: هلا تقدمت بشيء لهذا العمل الخيري أو ذلك، أمسك، وشحَّ وبخِل وعاد كأنما غلت يداه. وقد شنّع الله تعالى على اليهود في ذلك و وبّخهم عليه فقال:﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾[البقرة:٤٤].

قالوا:«إن جماعةً من اليهود كانوا قبل مبعث الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يخبرون مشركي العرب أن رسولًا سيظهر منكم، ويدعو إلى الحق، وكانوا يرغبونهم باتباعه فلما بعث الله محمدًا حسدوه، وكفروا به، فبكتهم الله تعالى بسبب أنهم كانوا يأمرون باتباعه قبل ظهوره، فلما ظهر تركوه، وأعرضوا عن دينه».

(البقية على ص ٥٤)

أبو عائض القاسمي المباركفوري